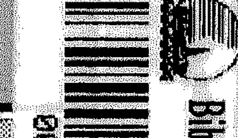
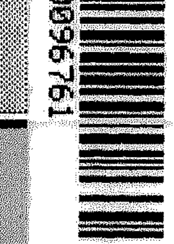
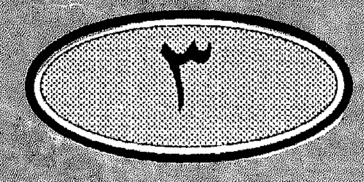
تحت دائرة الضوء

نزار سمك

البوسنة والميراث الدامى





البوسنة

والميراث الدامى

الطبعة الثانية يناير ١٩٩٧

عنوان الكتاب : البوسنة والميراث الدامى
اسم المحـرر : نزار سمك

الناشر : مركز المحروسة للبحوث والتدريب والنشر
٤شارع ٩ب المعادى - ت: ٣٧٥٢٠٣٣
المدير العام والمشرف على السلسلة : فـريـد زهـران
مراجعة : مصطفى عبادة الغلاف للفنان : أحمد بهاء الدين
صف وتنفيذ : عبير حسن
رقم الإيداع : ٩٦/٤٥٤٠
الترقيم الدولى I.B.N.S : 977-5652-47-2

البوسنة

والميراث الدامي



إهـــــداء

إلى ... الطفلة البوسنية "إيرما" وأقرانها .. وإلى .. "شيماء" المصرية وغيرها .. ضحايا التعصب والهمجية والبربرية والقتل العشوائى .

ثم إلى "مريم" طفلتى .. لعلها تعيش فى عالم خال من التعصب والهمجية والبربرية . عالم يسوده العقل والتسامح.

نـــزار



الفهرس



مقدمة الطبعة الثانية

دفعنى إلى تتبع الأزمة اليوغسلافية ومأساة شعب البوسنة تحديدا، الظروف الدولية التى تفجرت فيها تلك الأزمة، وتعدد واختلاف وجهات النظر فى التعامل معها وتفسير أسبابها، واختلاط كل ذلك بأساطير قديمة وحديثة تم استحضارها من الذاكرة الجمعية وتضخيمها وتوظيف الكراهية المخزونة فى تأجيج حدة الصراع والإسراع بمعدلات الانهيار والتفكك، ربما بأكثر مما كان متوقعا ومحسوبا، ومما كان يخطط له، بحيث باتت الأزمة اليوغسلافية ومأساة البوسنة برميل بارود يهدد القارة الأوربية كلها فى زمن توحدها !. كان اللافت للنظر فى تلك الأزمة شيئين الأول : تفجرها فى ظل سعى أوربا إلى التوحد السياسى وعقب التبشير بنظام أطلقوا عليه النظام العالمى الجديد تحدثوا كثيرا أثناء الترويج له عن الشرعية الدولية، واحترام قرارات المجتمع الدولى والأمم المتحدة الممثلة له – كما يشاع – وعدم مشروعية العدوان أو التصديق عليه كأمر واقع والقبول بنتائجه. وهذا يعنى عدم تحقيق أية مكاسب للطرف المعتدى. وكلها كما نرى شعارات جميلة وبراقة، نحن أبناء العالم الثالث أحوج ما نكون لتحقيقها والتعلق بها – ولازلنا – بالرغم من أن الشعب العراقى راح ضحية تلك الشعارات بينما ظل النظام العراقى على حالة وتلك لعمرى مفارقة كبيرة فى

النظام العالمى الجديد - وفينا أيضا- حيث لازلنا نحن أبناء المنطقة العربية تحديدا ندفع وحتى الآن ثمن تحقيق الشرعية الدولية وثمن تجاهلها.

وإذا كانت الشرعية الدولية كما يريدونها قد تحققت فى الكويت وبات العالم كله يقول ما فات قد فات وما حدث قد حدث، والواقع الجديد الآن يقول أن ثمة عالم جديد يتشكل وثمة شرعية دولية ستكون موضع احترام المجتمع الدولى، وان هذا المجتمع من خلال "أممه المتحدة" سيتولى تحقيق السلام والعدل فى هذا العالم إلخ. إذا كان كل ذلك يقال كدعاية لهذا النظام المزعوم فقد جاءت أزمة يوغسلافيا والبوسنة تحديدا لتفضح هذا النظام وتضعه أمام محك حقيقى ومشكلة حقيقية فى قلب قيادة المجتمع الدولى، فى القارة الأوربية، وإذا بهذا النظام العالمى الجديد وكل شعاراته لا شئ. وإذا بالمجتمع الدولى -الغربى طبعا- والأمم المتحدة يسقطون أخلاقيا وسياسيا فى مستنقع البلقان وتبقى مأساة البوسنة والهرسك شاهدا على هذا السقوط على زيف وكذب كل الشعارات البراقة التى رفعها المبشرون بهذا النظام. بل ودليل على كذب هذا المجتمع الغربى وتخليه عن أهم القيم التى رفعها طوال الأعوام الماضية، قيمة التعددية والإيمان بالآخر واحترام وجوده وحقه فى الاختلاف والحياه، حين تقاعس عن حماية التعددية الحقيقية ثقافيا ودينيا فى دولة البوسنة ومدينة سراييفو التى كانت خير تعبير عن تلك التعددية.

الثانى : هو إقحام الإسلام وتوظيفه فى تلك الأزمة من قبل الأطراف المتصارعة أو المؤيدة لأحدهما بصرف النظر عن صدق كل طرف فى دعواه، وبصرف النظر أيضا عن أيهما الأكثر توظيفا لذلك، فالمهم أن النتيجة المترتبة على هذا التوظيف، كانت سلبية تماما بالنسبة لقضية شعب البوسنة العادلة، الذى وجد نفسه يدفع ثمن مغالطات وأخطاء الآخرين، سواء تلك التى أطلقها الصرب عن تأسيس دولة أصولية إسلامية - مع أنهم يؤسسون دولة أصولية نازية صربية - فى قلب القارة والتى وجدت أذانا صاغية لدى أطراف غربية فى ظل البحث عن عدو جديد أو تبنى البعض لهذه المقولة وتأكيد إسلامية الدولة سواء داخل البوسنة، أو خارجها من قبل رافعى رايات الجهاد المقدس، والذى ثبت أنهم أكثر ضررا على الذين يهبون لنصرتهم وعلى الإسلام ذاته من باقى الأعداء الذين يتوهمون أنهم يحاربونهم، لأنهم يقدمون خدمات جليلة للأعداءتساعدهم على تحقيق أهدافهم ويشوهون صورة الإسلام ويضيعون حقوق من يدافعون عنهم.

ونحن فى تتبعنا للأزمة وأسبابها -فى الطبعة الأولى- تعرضنا بشكل مختصر ومكثف لتاريخ البلقان ودخول، الأتراك إليه. وكيف ولماذا تبنت بعض شعوب المنطقة الإسلام، مرورا بتجربة تيتو، وتوقفنا فى رصد أحداث الأزمة عند نهايات عام ١٩٩٣ وكانت لنا توقعات ونتائج فضلنا أن نضيف إليها ما حدث فى العامين الماضيين حتى توقيع الاتفاق الأخير لنرى هل اختلف

الأمر عما كان متوقعا. كما وأننا قد توسعنا بعض الشيء فيما يخص الخلفية التاريخية أملين من وراء ذلك أن يساعد هذا الكتاب بما حواه من وقائع وأحداث وتحليلات فى كشف الغموض واللبس الذى أحاط بتلك الأزمة والتى تحولت إلى جريمة إنسانية ومجزرة بشعة شارك فيها الجميع وراح ضحيتها شعب البوسنة.

فهل فى ظل هذا السلام المنقوص ستسترد البوسنة عافيتها وجمالها وسماحتها وتعدديتها الثقافية الحقيقية كما كانت... ربما... ربما يمكن إعادة إعمارها وبناء ما تهدم وترميمه – فهذا استثمار !! – ولكن هل يمكن إعادة الروح مرة أخرى إلى بقايا الأنقاض البشرية هناك ؟! هل يمكن ترميم تلك الروح ؟! وكم من الوقت تحتاج لإتمام ذلك ؟! هل ستعود إلى الأطفال - أطفال الحرب – براءتهم وصفوهم وأحلامهم ؟! هل يمكن أن يتعايش البوسنيون باختلاف دينهم كما كانوا ؟!.. إن هذا ليس بالأمر اليسير فالأكيدا أنك لا تستحم فى النهر مرتين والأكثر تأكيدا أنه لاشىء يأتى ويمضى دون أثر.

نزار محمود سمك

مـــدخـــل

تنفـرد المشـكلة اليوغسـلافية الحاليـة بتداخـل عوامـل كثيـرة بعضها محلى داخلى وبعضهـا دولـى خـارجى، بعضهـا تاريخى وبعضها حديـث الأمـر الـذى يجعـل منهـا مشـكلة شـديدة الخصوصية والتعقيد معـا، خاصـة عندمـا يتداخـل ويـتزامن هـذا بذاك.

وإذا كـانت المشـكلة نتاجـا لفقـدان القيـادة الكاريزميـة والإرادة الفكرية القادرة على توحيد هذا الكيان كما كان فى عهـد تيتو، فإنها أيضا تعبيرا عن مجمل الصراعات القديمة والكراهيـة المخزونة وانهيار عقيدة الإدارة الذاتية الاشتراكية، وتراجع نزعة القوميـة التقدميـة التـى وظفـت الكبريـاء القومـى لتعميق الانتمـاء والمسـاواة بيـن الجميـع. لتحـل محلهـا النزعـة القوميـة الرجعيـة الفاشية التى تحتكر لنفسها الحق التاريخى. وبالتالى تسـتبعد بـاقى المجموعات الأخرى الأقل نقاءا من وجهة نظرهـا. وهنـا تصبـح المشكلة ليست فى إقرار مبدأ حق تقرير المصير ولكن فى كيفيـة تنفيذه فـى ظـل النزعـة المتطرفـة للبعـض خاصـة عندمـا يشـتبك القومـى الفاشـى التوسـعى بـالدينى عندمـا يتـم التنكـر لحـق الحيـاة وليس تقرير المصير فقط.

وإذا كـانت الأزمـة أيضـا تعبيـرا عـن انهيـار المنظومـة الشيوعية فـى العـالم. فإنهـا كذلـك قد حدثـت فـى ظـل متغيرات عميقة فى أوروبا الغربية حيث تنتقل الجماعة الأوروبية من حالة التعاون الاقتصـادى إلى حالة التوحـد السياسـى وصياغـة سياسية خارجية وأمنية مشتركة. وهنا أصبحت الأزمة اليوغسلافية أول

اختبار حقيقى لطموح الجماعة الأوروبية يكشف مدى قدرتها على حل مشاكلها الداخلية. وتبنى سياسة خارجية وأمنية مشتركة لمواجهة تلك الأزمة التى تهدد أمنها الداخلى. خاصة وأن احتمال انتقال هذه العدوى إلى أماكن أخرى فى البلقان هو أمر وارد الحدوث. ويزداد الأمر تعقيدا فى ظل الرغبة الأمريكية لتأكيد دورها الجديد فى أوروبا بما يتلائم مع تلك المتغيرات سواء كانت انهيار أنظمة الحكم فى أوروبا الشرقية أو إتمام الوحدة الأوروبية.

وعموما وللوقوف على ما يحدث فى يوغسلافيا الآن نرى أنه لابد من الإطلاع على تاريخ هذه المنطقة - والتى تكونت فيها يوغسلافيا الحالية فيما بعد - والمعروفة بشبه جزيرة البلقان ليكون ذلك مدخلا لمعرفة خصوصية وتركيب هذه المنطقة وما حدث لها وفيها ؟ ومتى كانت تستقر ؟ ومتى تنفجر؟ ولماذا ؟ وما هى الأسباب والعوامل التى أدت إلى تفجيرها فى الماضى والحاضر، ولماذا كان الصراع فى البوسنة والهرسك تحديدا هو الأكثر دموية وشراسة وهمجية وبربرية ؟ هل هو الاختلاف العرقى كما يقال ؟ ولكن هل أى اختلاف عرقى لا يمكن حله إلا بالإبادة أو التهجير ؟ وهل سيكون ذلك هو الحل مع باقى العرقيات الأخرى المنتشرة فى المنطقة ؟ وإذا كانت الإجابة المنطقية هى النفى والرفض فلماذا إذن هذا العنف فى البوسنة والهرسك ؟ هل هو بسبب الاختلاف الدينى وبالتالى الثقافى والحضارى ؟!، ولكنا نعود ونسأل وهل أى اختلاف دينى أو مذهبى لا يحل إلا بالتصفية الجسدية والإبادة والقضاء على الآخر تماما.

صحيح انه منذ زمن طويل كانت أوربا سباقة فى النزول إلى مستنقع الحروب الدينية والمذهبية والعنصرية المتسمة بالشراسة والهمجية، سواء فى عصورها الوسطى أو فى عصرها الحديث " فتاريخ أوروبا ليس غريبا عليه اختلاط النضال الدينى بالنضال السياسى، فقد كان الصراع مثلا بين الكاثوليكية والكلفنية (نسبة إلى كالفن البروتستانتى) صراع غير صريح بل يقع تحت ستار رغبة الدولة الوطنية الحديثة فى أن تجتمع أسباب السلطة كاملة وغير موزعة فى يد الحكومة الموحدة الوطنية أو تحت ستار رغبة هذه الدولة الوطنية (القومية) ذاتها فى تحقيق أغراضها الوطنية، سواء اتخذت هذه الأغراض شكل التوسع على حساب جارتها أو محاولة المحافظة على التوازن الدولى فى أوروبا[1] " .

وصحيح كذلك أن السلافيين تعلموا فى ذلك المستنقع وفى تلك المحرقة منذ العصور الوسطى وحتى الآن، وصحيح أيضا أنه عندما يكون الأمر المطروح هو القضاء على الطرف الآخر قضاءا تاما يكون الصراع فى هذه الحالة صراع وجود ويصبح من السهل والحال هكذا إرجاع هذا الصراع إلى أسس دينية وهو أمر بقدر ما فيه جانب من الصحة لا يجب تجاهله، إلا أنه يفتح أبواب الجحيم على مصراعيها إذا تم تضخيمه واستغلاله وهو جحيم لا ينجو منه أحد.

لذلك فنحن نتساءل هل من الممكن أن يكون هناك عامل واحد - مهما كانت وجاهته وقوته - وراء هذا الصراع المرير أم أن هذا الصراع هو حصيلة عوامل كثيرة بعضها بعيد جدا وبعضها حديث جدا بعضها داخلي وبعضها خارجي. عوامل اختلط فيها الدينى بالقومى بالسياسى بالاقتصادى بالتوازنات الدولية داخل أوروبا والتى أصبح من الضرورى مراجعتها فى

ظل المتغيرات الجديدة حتى ولو تطلب الأمر تغيير بعض الحدود وإبادة البشر كما حدث من قبل. علما بأنه أيا كانت الأسباب أو العوامل فإنها ليست مبررا على الإطلاق لما يحدث من جرائم. كما إنها لا تمنح هذا الفعل أى قدر من المشروعية ولن تلغى الجرم ولا مسئولية المجتمع الدولى الغربى تحديدا.

ونحن هنا إنما نحاول أن نضع هذه المسألة فى سياقها الصحيح والموضوعى - بقدر الإمكان - حتى نفهم كيف يمكن إعادة الاستقرار إلى هذه المنطقة مرة أخرى، هذا إذا كانت هناك رغبة أو مصلحة في ذلك ! فهذه المنطقة كانت دائما مرهونة بالدور الفاعل الذى تقوم به الإمبراطوريات المحيطة بها، والساعية إلى السيطرة عليها فى الماضى وأيضا الدول القوية المحيطة بها الآن والباحثة عن دور جديد يتوافق مع مكانتها الحالية والساعية إلى استعادة هيبتها الضائعة وسيطرتها القديمة أو حلمها القديم .

الفصل الأول

تكوين البلقان



البلقان هو الاسم الذى يطلق على شبه جزيرة كبيرة فى جنوب شرق أوروبا، حدودها الشرقية البحر الأسود، والجنوبية البوسفور وبحر "ايجه" و "مرمرة" والشمالية نهر "الدانوب" والغربية البحر الأدرياتى وهى تضم أراضى ٦ دول هى ألبانيا ورومانيا وبلغاريا ويوغسلافيا الحالية واليونان وتركيا، وهى من اكثر المناطق التى شهدت صراعات ومذابح رهيبة على مر تاريخها حتى أنه اشتق من كثرة الصراعات الدموية التي سادت ربوعها لفترات طويلة كلمة "البلقنة"، والتى أصبحت صفة تطلق على الحروب والصراعات والنزاعات الداخلية المشابهة. وهذه الحروب تتسم عادة بقدر كبير من الدموية والهمجية والجنون الذى يصل إلى حد تدمير الذات.

إضافة إلى هذه الخصية فإن منطقة البلقان كذلك، هى منطقة جذب لهجرات جماعية كبيرة فقد غزاها الرومان فى القرن الثالث قبل الميلاد، حيث خضعت هذه المنطقة للحكم الرومانى حتى القرن الرابع الميلادى، وفى هذا القرن حدثت المشكلة الكبرى التى قسمت المسيحيين داخل الإمبراطورية الرومانية إلى معسكرين وجرت الصراعات الدينية والسياسية حتى أن الإمبراطور قسطنطين بدل مذهبه الدينى عندما أراد نقل عاصمته من الغرب إلى الشرق وذلك لتحقيق مصالحه السياسية. وقد بدأت المشكلة فى كنسية الإسكندرية على إثر الخلاف الذى حدث بين الراهبين أريوس واثناسيوس حول طبيعة السيد المسيح والعلاقة بينه وبين الاله الأب وانقسمت الإمبراطورية الرومانية إثر ذلك على أسس مذهبية إلى إمبراطوريتين : الإمبراطورية الرومانية الشرقية والتى عرفت فيما بعد بالإمبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية، والإمبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها روما. الأولى صارت أرثوذكسية المذهب

شرقية الطابع يونانية اللغة والحضارة، والثانية اعتنقت المذهب الكاثوليكي وصارت غربية الطابع لاتينية اللغة والحضارة. هذا الانقسام كانت له آثاره البعيدة والكبيرة على أوروبا فيما بعد وعلى البلقان خاصة كما سنرى لاحقا.

في هذه الفترة التي شهدت هذا الانقسام بدأت الهجرات السلافية الكبيرة تعرف طريقها إلى هذه المنطقة، وهي هجرات كانت تبحث عن أماكن افضل للعيش أو تهرب من ضغط قبائل رعوية أخرى. وقد بدأت هذه الهجرات منذ القرن السادس الميلادي، والبعض يقول القرن الرابع الميلادي، وقد أصبحت هذه الهجرات التي أخذت شكل الغزو تشكل تهديدا على استقرار الإمبراطورية الرومانية التي عجزت عن ردهم.

ففي الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية الرومانية الشرقية مشغولة في حروبها مع الفرس تارة والعرب تارة أخرى "بدأ السلاف والافار يستغلون الفرصة ويتوغلون داخل ترافيا ومقدونيا ابتداء من سنة ٥٩٢، واشتد ضغطهم على الجبهة البلقانية واجتاحوا شبه جزيرة البلقان بأكملها حتى بدت الإمبراطورية على شفا هاوية سحيقة.. ومع ظهور العرب وإجهازهم على الفرس وهجومهم على القسطنطينية نشبت اضطرابات في البلقان أثارتها عناصر سلافية إضافة إلى عنصر جديد من البرابرة الآسيويين وهم البلغار* الذين تركوا مقرهم على الفولجا وعبروا الدانوب سنة ٦٧٩ ليتوغلوا في أراضي الدولة البيزنطية في البلقان "(٢).

والثابت أن هؤلاء السلاف شاركوا في معارك العرب –

---

*البلغار : من أصل غير سلافي لكنهم تأثروا بحضارة السلاف ولغتهم وعاداتهم لذلك أجمع الباحثون على اعتبارهم سلاف.

ضد بيزنطة كما شاركوا فى معارك بيزنطـة ضد العرب وضـد الأتراك الوافدين. " عندما كانوا فـى الأصل جنـودا مرتزقـة فـى الجيوش البيزنطية ثـم رأت بيزنطـة لأغراض دفاعيـة أن تنقلهـم من مواطنهم فى البلقان إلى الأناضول" (٣).

وهنا كما يقول د.أحمد السعيد مـترجم كتاب قيـام الدولـة العثمانية فى مقدمته "التقى الأتـراك الغز "أى التركمـان" بـإخوان لهم من الغز والبجنك النصارى والمانويين والشـامانيين والبجنـك هؤلاء أو البجناق هم الذين يعنينا أمرهم، حيث يذهب محمد السيد الدغيم (٤) إلى أن البوشناق (وهم الشـعب الذي يسكن البوسـنة) هم "البجناق" الذين كانوا يسيطرون على منطقـة نهـر الفولجـا ثـم حـاصروا القسـطنطينية ووصلـوا إلـى حـدود إيطاليـا، وأنـه تـم تحريف كلمة "بوجناق" بقلب الجيم الفارسية ذات الثلاث نقاط إلى شين ويضيف أن البجناق والبلغار اسلموا منـذ العصـر العباسـي. ورحلـة ابـن فضـلان عـام ٣١٠ هجريـة والـذى أوفـده الخليفـة العباسي ليعلمهم أمور دينهم من الرحلات المشهورة وفيها تحـدث عن إسلام ملـك البلغـار وان كنـا لا نعـرف متـى كـان إسـلامه ؟ فهل انتقل الدين الإسلامى مع البلغار إلى بلغاريـا ومـع البوشـناق إلى البوسـنة قبـل الغـزو العثمـاني لهـذه المنـاطق ؟، هـذا بـالطبع احتمال وارد ويصبح إيفاد بن فضـلان أمـر منطقـى خاصـة وان الإسلام دخل منطقة آسيا الوسطى الروسية مبكرا. إضـافة إلـى أن جنـوب إيطاليـا وصقلية كانـا مكانـا للمسلمين حتـى قبـل الغـزو العثمانى " فقد حدث أن طلب لويس الثانى فى الغرب المعونة من باسل المقدونى ضد المسلمين فارسل الإمبراطور البـيزنطى سـنة ٨٦٨ أسطوله الذى نجح فى تطهير الادرياتى من المسلمين"(٥) والادريـاتيكي هـذا هـو أحـد حـدود البلقـان كمـا وأن "الأمـويين وصلوا فى غزواتهم إلى سواحل بحرى مرمرة وايجة وكانوا قد

استولوا من قبل على أرمينية وقيليقية وفوماجين" (٦).

نعود ونقول أن حركة الهجرة عبر هضبة الأناضول إلى البلقان كانت دائمة، حيث يعتبر البلقان بوابة آسيا الصغرى إلى أوروبا. وهو المعبر بين أوروبا الشرقية والغربية وبالتالي هو نقطة اتصال - أو تمفصل - بين حضارتين وثقافتين مختلفتين ودائما ما كانتا متصارعتين.

ولأن هذه المنطقة منطقة جذب وتوسع في نظر أي إمبراطورية قريبة منها أو محيطة بها، فإن الصراعات الداخلية فيها لم تنقطع. إضافة إلى أنه داخل الإمبراطوريتين الرومانيتين الشرقية التي كتب لها البقاء طويل، أو الغربية التي لم تعمر طويلا تواصلت الصراعات. فلم يقتصر الصراع فقط حول طبيعة السيد المسيح وانقسام الكنيسة إلى كنيستين بل حدث في القرن الثامن خلافات وصراعات بين الايقونيين واللا ايقونيين * سادت خلالها حالات اضطهاد كثيرة. ووصل الأمر إلى حد حدوث انقلابات داخل الأسرة الإمبراطورية الواحدة وقد أدى هذا الخلاف كذلك إلى زيادة الفجوة والتباعد بين الشرق الأرثوذكسي والغرب الكاثوليكي. ثم تلت هذه المرحلة مرحلة الصراع بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية والتي اصبح الصراع فيها بين الإمبراطور والبابا صراعا حادا يصل إلى حد إصدار الإمبراطور قرارا بالعزل للبابا أو إصدار البابا قرار حرمان للإمبراطور، كان أهمها حينما اصدر البابا ليو التاسع

---

*صراع بين من يقدسون الأيقونة (صور المسيح والقديسين)، ويقبلونها وبين من يرفضون هذا التقديس والتقبيل ويعتبرونه هرطقة وعودة إلى الوثنية، وفي هذا الأمر نلاحظ مدى التقارب مع النظرة الإسلامية للصور والتماثيل والتي ربما تأثرت بها هذه المنطقة أو العكس.

قرارا بتكفير الإمبراطور البيزنطى ورد عليه الإمبراطور بقرار مضاد. عموما ونتيجة لكل ذلك تمت القطيعة النهائية بين الكنيستين الشرقية الأرثوذكسية والغربية الكاثوليكية، بعد أن كانت الروابط بينهما لا زالت قائمة وتم إغلاق الكنائس التابعة لروما فى أراضى الإمبراطورية البيزنطية واستقلت الكنيسة الشرقية تماما.

ولأن خط الانقسام بين الإمبراطوريتين الرومانية الغربية الكاثوليكية التى تتحدث اللاتينية والرومانية الشرقية الأرثوذكسية والتى تتحدث اليونانية، كان يمر بالمنطقة التى عرفت فيما بعد بيوغسلافيا، فقد كان لهذا أثره السلبى على سكان هذه المنطقة اكثر من غيرها حيث ازدادت حالة الكراهية والعداء بين المذهبين، وقد عمق من حالة الكراهية هذه بين الأرثوذكس والكاثوليك

كما يقول د. سعيد عاشور أن الحملة الصليبية الكاثوليكية الرابعة والتى كان هدفها الأساسى التوجه إلى مصر سنة ١٢٠٤ بوصفها الدولة التى لعبت الدور الأساسى فى دحر الصليبيين عن بلاد الشام. هذه الحملة عندما فشلت فى تدبير الأموال اللازمة توجهت إلى القسطنطينية وأعملت فيها النهب والتدمير لتوفير الأموال وكانت تلك هى اخطر ضربة تعرضت لها القسطنطينية حتى سقوطها فى أيدى الأتراك عام ١٤٥٣.

نتيجة لذلك كان البلقان من اكثر الأماكن التى تجلت فيها هذه الكراهية فهو يضم مذاهب شتى بما فيها الهرطقة. وعليه نشبت المعارك الطاحنة والمريرة بين السلاف الأرثوذكس والكاثوليك خاصة حينما اصبح لدى الصرب الأرثوذكس الرغبة فى بناء إمبراطورية وكذلك البلغار والكروات الذين استطاعوا تكوين دولتهم المستقلة والتى استمرت حتى عام ١١٠٢ بعدها تم

إلحاقهم بالمملكة المجرية تم تمكن أل هابسبورج من ضم الجميع إلى مملكتهم. ومع ضعف الإمبراطورية البيزنطية تولد لدى الصرب الطموح فى توسيع دائرة ملكهم ونفوذهم وأنتزع ملكهم "ميلونين" "١٢٨٢" سكوبجى المقدونية من بيزنطة وبدأ التوسع الصربى فى مقدونيا. بعدها أسس ملكهم ستيفن دوسان (١٣٣١-١٣٥٥) مملكة قوية كانت تطمح إلى الاستيلاء على القسطنطينية ذاتها.

فى ظل هذا الصراع وهذه الرغبات التوسعية سعى الطرفان إلى احتلال أراضى وبلاد شعب البوشناق، وهو شعب وافد مثلهم - كما قلنا - من آسيا. وهناك من يقول انه لا فرق بينهم وبين السلاف الصقالبة والبلغار الذين وصلوا إلى هذه المنطقة منذ زمن بعيد، وبالتالى لا فوارق عرقية بين تلك الشعوب، وان الصراعات بينهما هى فى الغالب مذهبية وتوسعية. وعلى هذا الأساس تعرض شعب البوشناق الذى يسكن بلاد البوسنة إلى مذابح شديدة على مدى تاريخه قبل أن يدخل دين الإسلام، أو بعد أن اعتنق الإسلام على يد الدول المسيحية المجاورة الصربية الأرثوذكسية والكرواتية الكاثوليكية.

وإذا كان احتمال وصول هؤلاء البجناق إلى منطقة البلقان وهم مسلمون أو يحملون بعض الأفكار الإسلامية من مواطن هجراتهم الأولى هو احتمال ضعيف فإن المصادر التاريخية تؤكد أن أهالى البوسنة (البوشناق) كانوا يعتنقون مذاهب خاصة بهم مشتقة من العقيدة المسيحية الأولى تنسب إلى "مانى الفارسى" وهو رجل اشتق من المسيحية الأولى ديانة عرفت فيما بعد بالمانوية وهى عقيدة قوامها الصراع بين النور والظلام، وتقول بثنائية الكون وهى فكرة جوهرية فى الديانة الفارسية القديمة وكانت منتشرة فى آسيا الوسطى وروسيا ثم

عرفت فى بلغاريا بعد تعديلها باسم "البوجومولية" نسبة إلى رجل دين بلغارى اسمه "بوجوميل" ويقول محمد السماك (٧) "أن المؤمنون بهذه العقيدة رحلوا من بلغاريا إلى صربيا هربا بعقيدتهم. ثم فروا من صربيا إلى البوسنة نتيجة للقهر والتعذيب والبطش الذى تعرضوا له على يد ملكهم الذى ارتد عن البوجوميلية واعتنق الأرثوذكسية، وظل هذا الشعب يتعرض للاضطهاد الشديد على يد الأرثوذكس والكاثوليك حيث اعتبرهم البابوات هراطقة وطالبوا بالقضاء عليهم وظل إتباع هذه الديانة يتعرضون لحملات عسكرية شديدة بتهمة الذندقة والهرطقة من قبل الأرثوذكس والكاثوليك. وهكذا ونتيجة للاختلافات المذهبية التى تحكمت في توجيه الرغبات السياسية والرغبات التوسعية أصبحت منطقة البلقان مسرحا دائما للحروب الدينية المذهبية تارة، والحروب التوسعية والسياسية تارة أخرى خاصة عندما كان ينشط البعض لتكوين مملكة خاصة بهم كالصرب والبلغار.

بهذا صارت الصفة الأساسية لهذه المنطقة هى عدم الاستقرار وأصبحت الشعوب التى استقرت فى هذه المنطقة شعوب متقاتلة بعد أن كانت شعبا واحدا قبل أن تبدأ هجرتها الأولى إلى هذه المنطقة، وقبل أن تحدث الانقسامات المذهبية، وكانت افظع هذه الحروب هي تلك التى كانت بين الأرثوذكس والكاثوليك أو بين الاثنين وبين إتباع العقيدة البوجوميلية سكان منطقة البوسنة حتى وصل العثمانيون إلى منطقة البلقان واصبح تاريخ هذه المنطقة وسكانها مرتبطا بتاريخ الإمبراطورية العثمانية صعودا وهبوطا فيما بعد.



الفصل الثانى

دخول الأتراك للبلقان



منذ وصلت القوات العربية إلى المنطقة المعروفة حاليا بآسيا الوسطى والتى كانت قديما تركستان - أى بلاد الترك - بدأ الاحتكاك بين العرب والاتراك، والذين كثيرا ما سببوا متاعب للأموين خاصة الاتراك الشرقيون، فقد كان الامويون يتركون حكم هذه المناطق لابناءها. ومع ظهور الدولة العباسية واصل الاتراك صراعهم مع العباسيين إلى أن استقرت الأوضاع فى عهد الخليفة المعتصم بعد أن أصبح الاتراك جنودا فى جيش الخليفة خاصة الاتراك الغربيون.من هذه اللحظة بدأ الاتراك رحلة الخروج من واحاتهم فى تركستان إلى فارس والعراق. إلى أن تمكن الاتراك السلاجقه من اسقاط الدولة البويهية وتشكيل دولتهم. كانت دولة السلاجقة الاتراك التابعة للخلافة العباسية هى الدولة الملاصقة للدولة البيزنطية، وقد استطاعت هذه الدولة ان تعيد للدولة العباسية هيبتها التى فقدتها على يد الاسرة المقدونية البيزنطية حيث كان السجال بينهما دائم فتارة تدفع بيزنطة الجزية وتارة تمتنع.

فى ظل الدولة السلجوقية ومع ضغط البدو التركمان عليها توجه "إلب أرسلان" إلى القفقاس للحد من ضغط هؤلاء البدو وفى تلك الحملة تمكن "الب ارسلان" من الحاق هزيمة بالبيزنطيينن فى موقعة "ملاذكرد" سنة ١٠٧١ فقدت على اثرها الامبراطورية البيزنطية اجزاؤها الشرقية. وبالرغم من أن ارسلان لم يتوسع عقب هذا الانتصار فى الاناضول، فقد فتح الباب أمام الرعاه التركمان للتوغل فى الاناضول. بعدها بدأ السلاجقة الاتراك فى التوسع داخل اسيا الصغرى "خاصة وأن البيزنطيين انفسهم استعانوا بالعنصر التركى فى صراعاتهم الداخلية وبذلك تغلغل السلاجقة فى آسيا الصغرى حتى بلغوا اجزائها الداخلية الغربية" (٨). وبالطبع يمكن إرجاع نجاح

الاتراك فى أجتياح آسيا الصغرى إلى التماثل البيئى والجغرافى مع المناطق التى انطلقوا منهابانتصار السلاجقة وتكوين دولتهم القوية بدأت حدود بيزنطة تتراجع وتتقلص إلى ان جاء القرن الثالث عشر فانهارت دولة السلاجقة امام زحف المغول. كذلك وفى نفس الوقت كانت الامبراطورية البيزنطية التى لا زالت تعانى من حملة النهب والتدمير التى لحقت بالقسطنطينية عام ١٢٠٤ قد تلاحقت عليها التمردات داخل الولايات البلقانية.

مع اجتياح المغول للمنطقة اختلط هولاء الرعاه بالامارات الصغيرة المتحضرة إلى حد ما. ومن هذا الخليط وفى ظل هذه الظروف بدأت الدولة التى عرفت فيما بعد بالدولة العثمانية فى التكون والظهور "١٣٠٢" وهى الدولة التى أصبحت القوة السائدة فى المنطقة وعاشت ٦٢٣ تركت ورائها احداث وتاريخ لازالت اثاره باقية ولازال موضع جدل للآن.

منذ ظهور هذه الدولة استفادت من النظم الادارية والقانونية التى كانت سائدة فى المدن الإسلامية القديمة أثناء حكم العباسيين والسلاجقة، وبدأت فى توسيع رقعتها ليس على حساب الامبراطورية البيزنطية وحدها ولكن على حساب باقى الولايات التركية الصغيرة المتناثرة فى المنطقة التى زالت منها الدولة السلجوقية. وقد استطاع السلطان اورخان (١٣٢٦-١٣٥٩) ان يبدأ فى التحرك صوب أوروبا "فاستولى على غاليبولى عام ١٣٥٤ وحصنها لتكون مركز ثابت للعثمانين فى أوروبا. ثم استولى السلطان مراد الاول على مدينة ادرنة سنة ١٣٦١ واصبحت اعظم مركز للعثمانيين حتى استيلائهم على القسطنطينية" (٩).

بدأ الاتراك فى الاستيطان فى هذه المنطقة والانطلاق منها إلى مناطق أخرى كتراقيا والمورة، وهو أمر جرهم إلى

الاصطدام بمملكة الصرب التى كانت قد تاسست وبلغت قوتها فى عصر ملكهم ستيفن دوسان الذى كان يعد نفسه ليكون وريثا للامبراطورية البيزنطية بعد أن دب فيها الضعف والوهن نتيجة للصراعات الداخلية وتردى الاوضاع الاجتماعية، والتى كانت هى ايضا سببا فى انتصار العثمانيون على البيزنطيين وعلى الصرب فيما بعد. "فبعد موت دوسان سنة ١٣٥٥ سحق العثمانيون الصرب نتيجة لما حاق بهم من تحريب وتمزق فكانت اول هزيمة للصرب عام ١٣٧١ كذلك خسرت صربيا لصالح العثمانيين مناطق بلغارية شاسعة ومعظم مقدونيا وبدأ العثمانيون بعد هذا فى تأكيد فتوحاتهم فى البلقان باحتلال منظم لليونان وبلغاريا"(١٠).

ولكن هذا لا يعنى ان الطريق كان ممهدا امامهم بشكل دائم " فقد اظهرت الممالك السلافية فى شمال القسطنطينية وغربها عنادا فى مقاومة العثمانين اكثر مما فعل البيزنطيون انفسهم حين كونت فيما بينها حلفا دفاعيا سنة ١٣٨٧ تحت زعامة ملك البوسنة. وقد نجح هذا الحلف فى وقف تقدم العثمانيين" (١١). ولكن مع وجود انقسامات داخل المجتمع الصربى "وميل كثير من الزعماء الاقطاعيين والنبلاء إلى السلطان العثمانى فى أزمة ١٣٨٩" (١٢). تمكن السلطان مراد الاول من انزال هزيمة ساحقة بالصرب فى موقعة كوسوفو الاولى عام ١٣٨٩ وهى المعركة التى ترتب عليها سقوط مملكة الصرب ولازالت ماثلة فى اذهان الصرب حتى الآن "ففى عام ١٩٨٧ احتفل الصربيون فى كوسوفو (الالبانية) بقيادة ميلوسيفتش (لم يكن قد صار رئيسا لصربيا بعد) بمرور ٦٠٠ سنة على هزيمة لازار القائد الصربى القديم فى كوسوفو وارسلوا نعشه فى رحلة عبر قرى صربيا استمرت عاما كاملا

تعهدوا خلالها بالانتقام واعادة المجد الصربى مرة أخرى" (١٣) والاكيد ان هذه الرحلة بكل ما فيها من رغبات ثأرية وعنصرية قد اثارت مخاوف كل المسلمين داخل صربيا والجمهوريات كما ايقظت مشاعر الصرب الانتقامية وحلم صربيا الكبرى.

بعد هذه المعركة الحاسمة تعزز الوجود العثمانى فى البلقان خاصة بعد أن تمت هزيمة القوات الصليبية فى نيكوبوليس عام ١٣٩٦. ولكن مع هزيمة بايزيد أمام جحافل تيمور لنك توقف الزحف العثمانى فى اتجاه باقي البلقان، إلى أن تمكن العثمانيون من تنظيم أنفسهم فأجتاحوا بلغاريا وانتصروا على الحلف المجرى فى معركة فارنا عام ١٤٤٤ ثم فى عام ١٤٤٨ تمكنوا للمرة الثانية من الحاق الهزيمة بهذا الحلف فى معركة كوسوفو الثانية ثم سقطت القسطنطينية فى ايدى الاتراك العثمانيون عام ١٤٥٣ على يد محمد الفاتح وأصبحت هى عاصمة الامبراطورية العثمانية فيما بعد.

فى تلك الفترة كانت البوسنة لا زالت مستقلة، وقد رأينا ان ملكها قاد الحلف السلافى فى مواجهة الاتراك. وقد ظلت البوسنة على حالها قوية إلى ان مات ملكها "نفرتكو الاول" (١٣٥٣-١٣٩١) فحل بها الضعف بعد ان كانت تقاوم العثمانيين مقاومة شديدة واستطاع العثمانيون تحقيق بعض الانتصارات بقيادة السلطان بايزيد عام ١٣٩٦.وظلت على حالها حتى اكمل **محمد الفاتح الاستيلاء على كل اراضى البوسنة عام ١٤٦٣ بعد** ان مزقتها الحروب الدينية. وفى عام ١٤٨٣ استولى الاتراك على الهرسك ايضا بعد ان كانوا قد فتحو البانيا فى عام ١٤٧٩. ونلاحظ هنا ان اكثر المناطق دخولا فى الاسلام كانت اكثر المناطق مقاومة وصمود. وبعدها واصل العثمانيون تحركهم إلى

ان تمكنوا فى عام ١٥٢٦ من الحاق الهزيمة بالمجر فى موقعة "موهاكس" وبذلك سقطت مملكة المجر.

بلغت الامبراطورية العثمانية مجدها فى عهد سليمان القانونى وبموته - بالاضافة إلى اسباب اخرى توسع بول كولزفى ذكرها - بدأ الضعف يدب فى جسد الامبراطورية. إلى ان استطاعت اسرة كوبريللى الالبانية ان تجدد دمائها وتعيد بعض المجد والقوة اليها وحاولت للمرة الثانية اسقاط فينا حين قامت بحصارها الفاشل عام ١٦٨٣ "وعلى اثر تقهقرهم تعرض العثمانيون لسلسلة من الهزائم العسكرية امام الامبراطورية فى المجر وصربيا والبوسنة وامام البنادقة فى المورة وفى معركة "زنتا" عام ١٦٩٧ كان العثمانيون مضطرين للتوسل - بكل ما فى الكلمة من معنى - للحصول على السلام وكان عليهم ان يقبلوا بنودا صعبة فى معاهدة كارلوفتس سنة ١٦٩٩"(١٤).

بدأ نجم الامبراطورية العثمانية فى التراجع والافول حيث اصبحت فى اغلب الاوقات فى موقف دفاعي. بينما بدا نجم الامبراطورية النمساوية يصعد فى سماء البلقان كطرف جديد فى موقف هجومي. ومنذ القرن السابع عشر سادت الحروب والفوضى الداخلية منطقة البلقان والامبراطورية العثمانية ذاتها حين بدأ حكام الولايات فى التمرد. وتزامن ذلك مع تمرد شعوب البلقان ضد الانكشارية واصبحت الامبراطورية النمساوية طرفا فى هذه الصراعات خاصة عندما ارتمى الكروات فى حضنها طلبا للحماية من الاتراك بعد ان حققوا الانتصار على المجر. واصبحت كرواتيا بالنسبة للنمسا هي خط المواجهة وحائط الصد امام الاتراك وقد تمكن النمساويون من الاستيلاء على بلغراد لكنهم تراجعوا واعادوها مرة أخرى للاتراك عندما هددت

بروسيا بغزو النمسا (لا زالت العداوات الماضية تحكم ردود الافعال فى دول أوروبا حتى الآن).

عندما اصبحت الاوضاع البلقانية بهذا الشكل حيث الامبراطورية العثمانية فى تراجع وانكماش والامبراطورية النمساوية والروسية فى تقدم وتمدد. ازدادت حركات التمرد السلافية وبدأ الصرب فى عام ١٨٠٠ اول محاولة لهم لانتزاع السلطة بعد ان تفرغت قوات الانكشارية المحاربة للنهب والسلب بعد ان استقرت فى الاراضى التى كان السلطان يمنحها لهم دون توريث والمعروفة باسم "التيمار" * ليعيشوا منها فى فصل الشتاء، فصل توقف القتال والغزو، ولكن عندما اصبحت هذه التيمارات يمكن توارثها تحول هؤلاء المقاتلين إلى ارستقراطية تمثلت سلوك الاقطاع الغربى واصبحت تفرض الضرائب لصالحها دون ان يكون لديها تعليمات بذلك وقد وصل الامر إلى حد ان السلطان كون جيشا من فلاحين الصرب لمحاربة الانكشارية ووقف فسادها عندما استشعر خطر هؤلاء الجنود الذين لا صنعة لهم خاصة بعد توقف الغزو على سلطته في محاولة منه لارضاء رعاياه من الفلاحين والفقراء لكن بذور الفكرة القومية والتحرر القومي كانت قد استقرت ونمت فى قلوب سكان المنطقة خاصة فى ظل غياب قومية عثمانية عامة ووجود أطراف خارجية تمديد العون والمساعدة لرعايا العثمانيين وبالتالى تسربت الايديولوجيا القومية الثورية الأوروبية إلى المنطقة لتملا هذا الفراغ واستلهمت القوميات فى المنطقة انتصار

---

* لوحظ أن أراضي التيمار هذه لم تعرفها المنطقة العربية التي خضعت للإحتلال العثماني الامر الذي يؤكد أن لهذه التيمارات وظيفة عسكرية قتالية حيث انتشرت فقط في مناطق التماس مع الاوربيون.

القوميات الأوروبية وتحولت تلك النزعة القومية إلى قنابل موقوته لم تتورع الأطراف الخارجية خاصة روسيا والنمسا عن استخدامها لتأمين وتحقيق مصالحها حيث "أصبح باستطاعة القوى الأوروبية الاستيلاء على ولايات كاملة من الامبراطورية العثمانية ليس بسبب تفوقها العسكرى فحسب وأنما لان شعوب تلك الولايات لم تشعر بأى ارتباط خاص يشدها إلى استانبول"(١٥).

لم يعد الوجود التركى فى البلقان مستقرا بشكل دائم كما كان فى الماضى بعد أن اصبحت الامبراطورية النمساوية والروسية طرفا فاعلا في البلقان اضافة الى الثورات الداخلية والتي كانت بمثابة السوس الذى ينخر فى عظام هى اصلا مهترئة. ومنذ ان تبنى القيصر اسكندر الثانى عام ١٨٥٥ الدعوة إلى الجامعة السلافية صار لروسيا نفوذها القوى داخل الصرب تحديدا. وفى عام ١٨٧٥ عند نهاية الحرب الروسية التركية حدثت ثورة فى البوسنة والهرسك ضد الاتراك ودخلت صربيا الحرب فى عام ١٨٧٦ دعما للبوسنة وبذلك تمكن البوسنيون من الاستقلال تماما عن الاتراك واصبحوا بذلك اول دولة فى البلقان تنتزع استقلالها من الاتراك برغم الاسلام الذى يجمع بين الاثنين. إلا أنه تم الحاق البوسنة بالنمسا وفقا لما قرره مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ والذى شاركت فيه بريطانيا والمانيا وفرنسا وايطاليا وتركيا وروسيا التى كانت قد استطاعت فى معاهدة سان استيفانوس ان تنتزع من العثمانيين الاعتراف باستقلال ما يسمى بـ "بلغاريا الكبرى" وبلاد الصرب والجبل الاسود والبوسنة والهرسك ولكن بريطانيا والنمسا رفضتا هذه المعاهدة خوفا من ان تسيطر "بلغاريا الكبرى" هذه على البلقان والبوسفور وحتى لا تحقق روسيا مكاسب كبيرة فى المنطقة. وعليه تم الاعتراف

باستقلال بلغاريا المعروفة حاليا - يحتفل سكانها بذكرى معاهدة سان استيفانوس التى تذكرهم ببلغاريا الكبرى حتى الآن - ووضعت تحت الحماية الروسية بينما وضعت البوسنة تحت ادارة الامبراطورية النمساوية المجرية.

وهكذا وخلال القرن التاسع عشر كان الاتراك العثمانيون يخسرون معظم امبراطوريتهم فى البلقان لكنهم فى نفس الوقت كانوا قد تركوا اثرا جديدا فى هذه المنطقة وهو الاسلام الذى اعتنقه سكان البوسنة والالبان وآخرين فى باقى مناطق البلقان خاصة مقدونيا واصبح هناك عاملا جديدا ضمن عوامل الصراع الكثيرة فى هذه المنطقة المتشابكة والتي كثيرا ما شهدت صراعات دينية ومذهبية كثيرة يختلط فيها القومي بالدينى بالسياسى التوسعى. ومع ظهور تيار القومية داخل المجموعات السلافية صار الاسلام مرادف للقومية بالنسبة لسكان البوسنة وهو أمر سنرى أثاره فى بدايات القرن العشرين وحتى الآن ولكن قبل الوصول إلى هذه الفترة، كيف استطاع الاتراك العثمانيون احكام قبضتهم على هذه المنطقة طوال تلك الحقبة وما هى الاسباب التى جعلتهم يجتاحون هذه المنطقة بهذه السرعة ويخلفون فيها هذا الاثر ؟ وهل انتشر الاسلام فى هذه المنطقة بالاكراه والاجبار ام ان هناك عوامل ساعدت على ذلك دون إكراه لأحد ؟.

الفصل الثالث

البيزنطيون والاتراك والبلقان

منذ ان تمت الاستعانة بالأتراك كمرتزقة فـى أول الأمـر لحساب أحد الأطـراف البيزنطيـة المتصارعـة علـى السـلطة بـدأ الاتراك يعرفون طريقهم إلى الاجزاء الغربية من آسيا الصغرى أولا ثم داخل أوروبا ثانيا وصار الاتـراك يعملـون لانفسـهم بـدلا مـن العمـل لصـالح الغـير "وازداد الموقـف سـوءا بالنسـبة للامبراطورية البيزنطية بعد وفـاة الامبراطور اندرونيـق الثـالث سنة ١٣٤١ التى اعقبتها حروب اهليـة داخليـة لـم يـتردد خلالهـا المتنـازعون مـن الاسـتعانة بالعثمـانيين" (١٦) بعدهـا اسـتطاع الاتراك الحصول على موقع داخل أوروبا وسرعان ما بدأوا فـى الانطلاق والتحرر من السـيطرة البيزنطيـة حيث اصبح بقـاؤهم مرهونا بالتوسع الدائم " فمنـذ سـنة ١٣٥٠ تحركـوا فـى أوروبـا كغزاة مستقلين وكمستوطنين واسـتقروا علـى السـاحل الاوروبـى لبحـر مرمـرة واقرهـم الامـبراطور البـيزنطى علـى ممتلكـاتهم الأوروبية ومن هذه المواقع المميزة انطلق العثمانيون لسد الفراغ الذى نتج عن اضمحلال النفوذ البيزنطى فى جنوب شرق اوربـا" (١٧) وقد ساعد الاتراك على احكام سيطرتهم على هذه المنطقـة عوامل عديدة منها كفـاءة النظـم الإداريـة والقانونيـة التـى ورثهـا الاتراك عـن المسـلاجقة والعباسـين هـذا مـن ناحيـة ومـن ناحيـة أخرى سوء الادارة البيزنطية والتى ترتب عليها تدهـور اوضـاع الفلاحين اضافة إلى الصراعات الداخلية على السلطة والخلافـات المذهبية.

فعـن احـوال هـذه المنطقـة قبـل الاجتيـاح العثمـانى ينقـل كارل بروكلمان عن الرحـالة البندقى ماركو بولو ما سجله سـنة ١٢٧٢ من أنـه "وجد الاتراك لا يزالون بدوا رحلا يعنون بتربيـة الماشية فى حين كان اليونـانيون والارمن دون غيرهم سادة المدن لكن سوء الادارة الذى اتصـف بـه الملاك البيزنطيون الكبار قـذف

بسكان الريف اليونانى إلى احضان الاتراك الذين اجتاحوا المدن في القرن الرابع عشر" (١٨) وهو ايضا ما عبر عنه بول كولز بقوله "ان فلاحى اوروبا الشرقية رحبوا فى البداية بالعثمانيين كمخلصين لهم من الطبقات الحاكمة التى كانت تسومهم سوء العذاب.. فعادة ما كان السكان من الفلاحين سواء فى أوروبا الدانوبية أم فى مستعمرات البحر المتوسط ينظرون للعثمانيين كمحررين"(١٩).

وقد نقل كثير من المراقبون المعاصرون للامبراطورية العثمانية روايات دقيقة وحسنه عن أوضاع الفلاحين تؤكد تحسن أوضاعهم "ففى البلقان كان الفلاحون المسيحيون فى ظل الحكم العثمانى أفضل حالا من الفلاحين المسيحين خلف الدانوب فى الأراضى الهنغارية أو الألمانية وفى أوقات الحروب كان الفلاحون المسيحيون ينحازون إلى جانب الأتراك ضد حكامهم وأسيادهم النبلاء. وخير دليل على ذلك عبور أعداد كبيرة من الفلاحين المسيحين نهر الدانوب إلى الضفة التركية من النهر فى أعقاب الثورات الفلاحية فى أوروبا الوسطى فى النصف الأول من القرن السادس عشر"(٢٠).

وهو أيضا ما عبر عنه بيرى اندرسون بقوله إن الفلاحين البلقانين خلال القرنين ١٥، ١٦ وجدوا أنفسهم فجأة وقد تحرروا من الخضوع المهين والاستغلال الارستقراطى فى ظل حكامهم المسيحين وانتقلوا إلى وضع اجتماعى كان فى معظم النواحى أكثر راحة وحرية منه فى أى مكان أخر فى أوروبا الشرقية أنذاك"(٢١).

بشكل عام هناك اتفاق بين كثير من الباحثين الذين تناولوا الفترة العثمانية فى البلقان – تحديدا – على تحسن أوضاع الفلاحين فى ظل الحكم العثمانى. ولكن لماذا كان المزارعون فى

البلقان يرحبون بالعثمانيين وينظرون اليهم بوصفهم محررين إلى حد تقديم المساعدة لهم ؟ يمكن إرجاع ذلك إلى قسوة النبلاء والملاك الممثلين للاقطاع الاوروبى فى استغلال الفلاحين الذين كانوا عبيدا للارض مقارنة بالعثمانيين الذين كان نظامهم اقل تطورا وتبلورا واقل انضباطا وعبودية على حد وصف بول كولز اضافة إلى ان اراضى التيمار وهى الارض التى كان يتم منحها للمقاتلين - دون ان يتم توريثها للابناء - لعيشوا منها اثناء الشتاء عندما يتوقف القتال (الغزو والسلب) كانوا يتركونها عندما يبدأ الغزو طوال الصيف للفلاحين الامر الذى كان يسمح لهؤلاء المزارعون بحرية التحرك والتصرف وهو أمر يفتقده المزارع الخاضع للنبلاء الغربيين حيث كانوا يعملون طوال العام كعبيد ارض ولا يسمح لهم بحرية الحركة والتنقل والتصرف اضافة إلى أن اصحاب التيمارات أو السباهين كانوا تحت اشراف صارم من القسطنطينية (استانبول) يحدد لهم - كما يقول ستافريانوس - التزاماتهم تحديدا دقيقا كما يحدد حقوق وامتيازات الفلاحين المسيحيين أو الرعايا وكان الفلاحون يتمتعون بحق استخدام الأرض وراثيا (العمل فيها) ومنع تهجيرهم منها ما لم يفشلوا فى استثمارها طيلة ثلاث سنوات وفى ظل هذه الشروط ضمن الفلاحين الحماية من الابتزاز. ويضاف أيضا إلى هذه الاسباب التي أدت الى الترحيب بالعثمانيين كثرة **النزاعات الدينية** " **فقد كان البلقان منذ امد طويل ارضا خصبة** للهرطقة اذ ترعرت فى انحائه عقائد كعقائد البوجوميل وكان خلاف هذه العقائد مع سلطان الكنيسة الرومانية الكاثوليكية عاملا مهما فى تيسير مهمة الفتوحات العثمانية فى القرن الخامس عشر"(٢٢).

هذه كلها عوامل ساعدت الاتراك على التوسع واحكام السيطرة على المنطقة يدعم كل هذا جهاز اداري ذو كفاءة مفتوح أمام كل من يثبت جدارته وجيش قوى (الانكشارية) كالسيف المسلط على أوروبا يلتهم كل ما يصادفه أمامه. كل ذلك مع سيادة مبدأ التسامح الديني مع الديانات الاخرى " فقد كان العثمانيون يطبقون مبدأ التسامح الديني على نطاق واسع بينما كانت أوروبا تفتقد إلى ذلك"(٢٣).

وهناك تأكيد وشبة اجماع على ان سياسة الاتراك كانت قائمة على مبدأ التسامح - والذى يصفه البعض بالتسامح الجزيوى - وعدم التدخل فى الشئون الداخلية للملل المختلفة طالما يؤدون الجزية ولا يهددون استقرار وامن الامبراطورية وتأكيدا على مبدأ التسامح هذا يقول بروكلمان "كان لبطريق الروم فى القسطنطينية من القوة والسلطان فى ظل العثمانيين اكثر مما كان له فى عهد بيزنطة وكانت السلطات العثمانية نفسها تسعى فى الاعياد الكبرى إلى ان تضمن للمسيحيين جوا من الهدوء وذلك بأن تعهد إلى حرس من الانكشارية فى المرابطة امام ابواب الكنائس" (٢٤) كذلك فقد اقر السلطان محمد الفاتح "الامتيازات والحصانات التى كانت الكنيسة الارثوزكسية تتمتع بها وزاد عليا مما جعل الكنيسة الارثوزكسية اكثر سعادة فى عهد الدولة العثمانية منها فى العهد البيزنطى" (٢٥) وقد كتب براغادين ممثل البندقية فى القسطنطينية عام ١٥٢٥ إلى بلاده يقول "لا أعرف دولة أسعد من هذه الدولة لأنها منطقة حباها الله بكل بركاته. أنها تمسك بذمام الحرب والسلم مع جميع الدول وهى غنية بالذهب والبشر والسفن والطاعة ولا يمكن مقارنتها بأية دولة أخرى، فليحفظ الله اعدل الاباطرة" (نقلا عن ستافريانوس ص ١٢٢).

في ظل هذا المناخ الجديد المتسم بالتسامح الديني والذى حقق قدرا من الازدهار فى - بداياته على الاقل - يحق لنا ان نسأل كيف ولماذا دخل ابناء البلقان فى الإسلام يؤكد بروكلمان "ان الوضع الاجتماعى الممتاز الذى تمتع به العثمانيون فى البلقان قد اغرى كثيرا من رعاياهم باعتناق الاسلام فقد فعل ذلك الالبانيون وطبقة النبلاء والبشناق برمتها والتى تمكنت بفضل ذلك من الاحتفاظ بسلطانها القديم على ممتلكاتها" (٢٦) اضافة إلى ان فرصة الصعود والترقي داخل الجهاز الادارى العثمانى كانت مفتوحة امام كل من يثبت جدارته وكفاءته كما قلنا بصرف النظر عن الفئة الاجتماعية التى ينتمى اليها كما كان الحال فى أوروبا الاقطاعية "لقد كان الاسلام ينتشر ببطء فى البلقان اذ كان التحول للاسلام مرتبطا بالرغبة فى تحقيق وضعية اجتماعية أو مزايا اقتصادية حيث كان يعفى معتنقوا الاسلام من ضرائب بعينها أو من الخدمة الحكومية" (٢٧).

وبالرغم من ان هذا الكلام يشير إلى ان الدخول للاسلام كان بغرض تحقيق مكاسب والحفاظ على الممتلكات الا ان نفس الكاتب يعود ويقول "ان احتمال التحول للاسلام فى المناطق النائية والجبلية كالبوسنة حيث تفشت العقيدة المانوية والبوجوميلية هو احتمال سهل التصور.. كذلك ادت الحروب المتوالية فى البانيا وكريت إلى تحول ملحوظ من المسيحية إلى الاسلام" (٢٨) وهنا تصبح مقولة دخول الاسلام من اجل الحفاظ على الممتلكات مقولة ضعيفة خاصة وان الذين دخلوا الاسلام لم يكونوا جميعا ملاك ارض بل كانوا مواطنين يعانون من اضطهاد الملاك والكنيسة والاقرب إلى المنطقة هو ان التسامح الدينى الذى مارسه العثمانيون مقارنة بالتعصب الدينى الذى كان يمارسه الاوروبيون ادى إلى عدم النفور من الاسلام كدين.

وعندما يلتقى هذا الدين الجديد مع شعب يعتنق ديانة مختلفة عن الديانة المسيحية كالبوجوميلية ويتعرض للاضطهاد والتنكيل بسبب هذا المعتقد المخالف، فإذا اخفنا إلى كل ذلك كون العقيدة البوجوميلية تنكر الولادة الالهية للمسيح وترفض التثليث وتدعو إلى الصلاه فى أى مكان يصبح من المنطقى ان يعتنق سكان البوسنة الاسلام نتيجة لتقارب الاسلام فى ذلك مع عقيدتهم وهربا من القهر والاضطهاد الذى وقع عليهم فترة طويلة بوصفهم هراطقة حين كان يتم تجبيش الجيوش للقضاء عليهم وإلى جانب كل ذلك فان هذا الوضع الجديد سيحقق لهمم الحماية من التهديدات المحيطة بهم.

لقد عددنا بعض الاسباب التى سهلت على العثمانيون اجتياح البلقان واجزاء كثيرة من أوروبا واخضاعها لفترة طويلة دامت خمسة قرون يرى البعض ان النظام العثمانى فى القرون الثلاثة الاولى كان ارقى نظام شهدته البلقان واكثرها تطورا وتقدما عكس القرنين الآخرين فكيف تحقق ذلك ؟ كيف تحققت السيطرة العثمانية على المناطق التى تم فتحها ؟ لقد تحقق ذلك من وجهة نظر روبير مونتران (٢٩) بالاعتماد على وسيلتين وهما : أولا : ارساء اسس ودعائم جهاز ادارى قوى ثانيا : الاستيطان وحتى لا يتم ادخال الارتباك على الظروف القائمة عمد العثمانيون إلى السماح لبعض السادة المحليين بالاحتفاظ بممتلكاتهم وامتيازاتهم دون اجبارهم على اعتناق الاسلام، وهذا أيضا ينفى مقولة دخول الملاك إلى الإسلام حفاظا على أملاكم، وقد وجدت اسماء مسيحية فى السجلات الحاوية لاسماء من تم منحهم اراضى "التيمار" وابقى العثمانيون على انماط الحياة والتقاليد والخبرات الخاصة للمناطق التى خضعت لسيطرتهم، ومن اهم الانماط التى حرصوا على الابقاء عليها - دون دفع

الاهالى لتبنى انماطهم الخاصة بهم كغزاة فاتحين - اللغة والدين وهوية المجموعات السكانية دون تهديد، ويعتقد مونتران ان هذه السياسة التى حافظت على اللغة والدين والهوية هى التى ساعدت على بروز القوميات فيما بعد وإلى اختفاء السلطنة العثمانية من البلقان فى القرن الـ ١٩ وهذا ايضا ما يؤكد عليه بول كولز بقوله "ان الجهاز الادارى العثمانى كان مؤثرا وفاعلا ويدعو إلى الاعجاب إلا أنه كان معزولا بسبب العامل الدينى الذى حال بينه وبين الاندماج الوثيق بالسكان، فيلما كان المذهب السنى يمنع اضطهاد الرعايا المسيحيين إلا أنه لم يكن يشجع أى خطة أو برنامج لتحويل الشعوب المسيحية تحولا جماعيا للاسلام" (٣٠).

وبالرغم من ان هذا الكلام يؤكد على تسامح الاتراك ومحافظتهم على هوية المجموعات السكانية وعدم وضع خطة لتحويلهم إلى الاسلام إلا أنه فى نفس الوقت يعتبر ذلك نقطة الضعف فى الحكم العثمانى والتى ادت فى النهاية إلى تصاعد الروح القومية المضادة للاتراك - خاصة فى ظل غياب قومية تركية - حتى وصل الامر إلى اختفاء السلطنة العثمانية وزيادة الفجوة بين الرعايا المسيحيين والحكام المسلمين وذلك لانه "لم تكن هناك سياسة عثمانية فعالة لتحويل الناس للاسلام" (٣١).

وبرغم ان هذا الكلام قد يثلج صدور البعض فاننا نؤكد ان البوسنيون خاضو معركة الاستقلال ضد الاتراك العثمانيين بالرغم من اعتناقهم الاسلام. فالاستعمار استعمار مهما كانت حسناته وديانته بل كان البوسنيون أول من استقل عن الاتراك فى البلقان لكنهم سقطوا تحت حماية النمسا وفقا لمخططات مؤتمر برلين.

وعموما وبرغم التأكيد على سيادة روح التسامح وصعود نجم كثير من المسيحيين فى الامبراطورية العثمانية ونيل بعضهم

الحقوق الكاملة وكذلك اليهود الذين لجأوا إلى الامبراطورية العثمانية مع بعض المسلمين الذين فروا من الاندلس بعد المذابح التى حدثت ضدهم لاجبارهم على اعتناق المسيحية حيث "نادرا ما كان العثمانيون استبداديين طغاة رغم قسوتهم وإهمالهم اذا ما قارناهم بأوروبا المعاصرة لهم حيث الهوس الدينى والتعصب المذهبى" (٣٢) فقد كان هناك "وجهة آخر للحكم العثمانى حيث كان الصبيان المسيحيون يجبرون على ترك عوائلهم والانخراط فى صفوف الجيش الادارى للدولة العثمانية" (٣٣). وذلك بعد تنشأتهم تنشئه إسلامية وتدريبهم للعمل بالمناصب القيادية والقتال.

وبرغم ما فى هذا النظام من قسوة ولا انسانية فإن بعض العائلات المسيحية التى كانت ضحية لهذا النظام المسمى "بالدفشرمة" - كما يقول الكاتب - لم تكن تعتبره ظالما بل بالعكس اعتبروه وسيلة للوصول إلى النفوذ السياسى والتخفيف بعض الشىء من صعوبة العيش فى تلك الفترة. وهو ايضا ما يؤكده بول كولز "بأن هذه العملية لم تكن تلقى الاستياء والامتعاض الكافيين ويمكن فهم ذلك اذا قارنا ظروف الحياة الطيبة وفرصها فى مؤسسات استانبول بحياة القرى فى البوسنة والبانيا". فقد كانت كما قلنا فرص الترقى لأعلى مفتوحة بلا حدود حتى أن بعض الحكام فى كثير من الاحيان كانوا أنصاف عبيد وأجلاب !!. ورغم كونهم عبيد السلطان فإنهم شغلوا معظم الإدارات الامبراطورية بما فى ذلك مركز الصدر الأعظم أى شكلوا ما عرف بسلطة الرقيق. ويرجع هذا الأمر إلى غياب الاستخدام الاقتصادى لعمل الرقيق فى الإنتاج الزراعى فى التقاليد الإسلامية السابقة والتى تأثر بها الأتراك فجعلوا الرقيق جنودا أو مظفون فى الإدارات. "أو المفارقة المثيرة الكامنة فى

قيام سلطة الرقيق - وهو أمر لم يكن من الممكن تصوره فى ظل الاقطاع الأروبى - يمكن تفسيرها بشكل مفهوم ضمن مجموع النظام الاجتماعى للاستبداد العثمانى. ذلك أنه ثمة إرتباط بنيوى بين غياب الملكية الخاصة فى الأرض وبين بروز ملكية الدولة للرجال. ومن حيث النتيجة فعندما أصبح أى مفهوم قانونى دقيق للملكية معطلا فى المضمار الرئيسى للثروة الأساسية فى المجتمع تميعت وتحولت الدلالات التقليدية للحيازة فى مضمار القوة البشرية فى الوقت نفسه، وعندما أصبحت كافة الملكيات العقارية من حق الباب العالى لم يعد من الأمور المهينة أن يصبح البشر ملكا للسلطان. ولم يعد الرف يعرف بوصفه نقيضا لـ "الحرية" بل بمدى قرب الوصول إلى القيادة الامبراطورية". (٣٤) (أندرسون صـ ١٥ - ١٦).

وبالرغم من ان منطقة البلقان بلغت فى ظل النظام العثماني وبالذات في القرون الاولى درجة عالية من الازدهار والانتعاش المادى والروحى بفضل كفاءة الجهاز الادارى وسيادة روح التسامح إلا أن الامبراطورية العثمانية وبالتالى مستعمراتها فى البلقان نالت نصيبها من التدهور والانحطاط وهناك تفسيرات مختلفة لاسباب هذا التدهور فهناك من يرى ان الدولة العثمانية قامت باهمال اقتصاد البلقان اهمالا كاملا خلال فترة وجودها هناك فقد كانت اراضى الصرب والبوسنة غنية بالموارد الطبيعية حيث مناجم الحديد والقصدير والنحاس وبعد دخول العثمانيين اضمحل الاقتصاد فى المنطقة واهملت المناجم حتى اصبحت غير صالحة فيما بعد" (٣٥). وبرغم ان هذا القول يرجع التدهور إلى إهمال الدولة العثمانية ذاتها دون أن يفسر لنا أسباب هذا الأهمال وهل كان متعمدا ؟ فإن "اندرسون" يرجع التدهور بشكل عام إلى غياب الملكية الخاصة والذى أدى إلى وقف التطور

الاجتماعى بل وارتداده وعندما توقف التوسع الأقليمى ازداد الاستغلال بالنسبة للفلاحين وتحول الجنود الفائضون إلى قطاع طرق ودب الفساد فى الجهاز الإدارى، وبعد أن كانت المناصب يتم الوصول إليها على أساس الجدارة والكفاءة أصبحت تباع وتشترى لمن يدفع الثمن الأعلى ولأنه لم يكن يضمن البقاء كثيرا فى هذا المنصب فقد كان يركز على الحصول على أكبر قدر ممكن من الثروة قبل أن يتم اقصاءه لصالح أخر. ومن هذه اللحظة بدأت الامبراطورية رحلة التفكك ولم يكن كل هذا بعيدا عن تفوق أوروبا الغربية اقتصاديا وتكنولوجيا بسبب سيطرتهم على التجارة.

أما "ستافريانوس" فيرجع التدهور إلى تخلف الامبراطورية عن الغرب فى التقدم العلمى والتلاحم السياسى، وان تخلفهم فى العلوم أدى إلى تخلفهم فى التكنولوجيا والإنتاج وأن هذا التخلف كان مسؤلا عن هزائمها العسكرية وعن الاضطرابات الداخلية التى حلت بها وعلى حد قوله جلب لهم هذا الجهل المصائب بعد أن أصبحت الكليات العثمانية MEDRESSEHSتولى اهتمامها للاهوت وفلسفة التشريع والخطابه على حساب الفلك والرياضات والطب. وعاش الاتراك فى غفلة تامة عن المنجزات التى اتصف بها العصر إضافة إلى أن التجاور الأقليمى سهل ممارسة الضغوط السياسية الغربية على الامبراطورية العثمانية خاصةفى ظل نظام الترتيبات التجارية المعروف باسم "الامتيازات" حتى أن السفير الفرنسى فى القسطنطينية عام ١٧٨٨وصف الإمبراطورية العثمانية بأنها أحدى أغنى مستعمرات فرنسا !.

ويرى أحد المؤرخين الاتراك "أن انحطاط النظام الاقتصادى والاجتماعى الراسخ بدأ نتيجة للتطورات التى قامت

خارج المنطقة التى يسيطر عليها الباب العالى ولاسيما نتيجة لتأسيس "الاقتصاد الأطلسى" ذى الحيوية والقوة الهائلتين فى أوروبا الغربية. فالنظام الاقتصادى للامبراطورية لم يتفسخ من خلال صدع كامن فى بنيانه.. بل تفسخ بسبب التبدلات التاريخية العميقة التى قوضت توازنه وحكمت على مؤسساته بالتداعى بشكل لا سبيل لترميمه. فخلال النصف الثانى من القرن الـ ١٦ بدأت التجارة الأوروبية المدعومة بموسسة تجارة متينه والقائمة على تشجيع دول قومية قوية، تتحول إلى مهدد رئيسى للصناعة المحلية. وأصبح فى نية التجارة الوطنية الأوروبية الجديدة أن تبيع أكبر كمية من السلع إلى الخارج فى الوقت الذى تضيق وارداتها من أية منتوجات أخرى فلم تفتح بذلك أية سوق أمام الصناعات التصديرية العثمانية المحلية وتحولت التجارة المشرقية إلى تجارة استعمارية انتهت لتحويل تركيا إلى زبون للصناعة الأوروبية تقدم له المواد الأولية وتمنع عنه تصدير السلع" (٣٦).

وبصرف النظر عن تقييم الدور التركى فى البلقان، والتوسع فى أسباب صعوده وأسباب انهياره فإن الثابت هو أنه ارسى دعائم جهاز ادارى فعال كان بالنسبة للاوربيين ارقى مما هم عليه في عصورهم الوسطى وكان مصدر اعجاب ودهشة لبعضهم وأنه حقق بعض المزايا للطبقات الدنيا التى استجارت من استغلال ملاك ونبلاء واقطاع اشد قسوة واكثر تنظيما بمن هم اقل. لكنه كذلك ترك خلفه نظم اجتماعية وسياسية اقل تطورا وتنقصها الكفاءة واصبح فى نهايتة يحمل نفس الامراض التى ادت إلى انهيار الامبراطورية البيزنطية وغيرها من الامبراطوريات حين دب الفساد وحين تكونت لديه ارستقراطية - نتيجة للسماح بتوريث اراضى التيمار - أصبحت تمارس نفس

الفعل الذى تمارسه الارستقراطية الأوروبية من قهر واستغلال حتى ان السلطان العثمانى تحالف مع فلاحيين الصرب لمحاربة هؤلاء الانكشاريون. وفوق ذلك اصبح هناك عاملا جديدا فى صراعات المنطقة التى دارت فى السابق بين الارثوذكس والكاثوليك وهو الإسلام و اصبح الشعب السلافى الواحد ثلاثة شعوب تعتنق ثلاثة اديان وتم التعبير عن هذه الخلافات باشعال العنصرية والتعصب الدينى من قبل الاطراف الخارجية بغرض الحفاظ على كياناتهم وتحقيق اهدافهم ومصالحهم. فقد سمحت الامبراطورية النمساوية - على سبيل المثال - للصرب بالاقامة على حدودها داخل كرواتيا برغم العداء بين الاثنين بغرض استخدامهم كخط دفاعى فى مواجهة العثمانيين مع منحهم بعض الامتيازات مما اثار حفيظة الكروات تجاه الصرب حيث يعتبر الكروات انفسهم جنسا ارقى وامتدادا للحضارة الغربية عكس الصرب الجنس الادنى والمتوجة نحو الشرق ابتداء من بيزنطه قديما إلى موسكو حديثا.

واذا كنا قد توسعنا فى ذكر بعض الوقائع وقمنا بعرض للتاريخ العثمانى فى البلقان فذلك لان هذا مرتبط بذاك منذ ان بدأت الامبراطورية العثمانية رحلة الصعود حتى ابواب فينا إلى ان عادت مرة أخرى إلى حيث أتت وترتب على ذلك تكوين الكيان الذى اصبح فيما بعد يوغسلافيا أى سلاف الجنوب.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

من المملكة الصربية
إلى يوغسلافيا



بتراخي القبضة العثمانية في منطقة البلقان، ونمو النزعة القومية، بدأت شعوب المنطقة تصعيدها المضاد للعثمانيين بغرض نيل الاستقلال. وشرعت في التنسيق فيما بينها لخوض المعركة الفاصلة ضد الاتراك وان كان هذا لم يمنع بعض الاطراف من السعي إلى تحقيق مآربهم الشخصية الخاصة واستعادة مجدهم القديم.

تحرك الصربيون الذين اعتبروا انفسهم مسؤولون عن تخليص الشعوب السلافية من الاتراك ومن الامبراطورية النمساوية المجرية أيضا. وعندما اصبح الصربيون يشكلون خطرا على النمسا، اعلنت النمسا ضم اقليم البوسنة نهائيا اليها عام ١٩٠٨ وتم قمع سكانها بوصفهم "اتراك". ومنذ هذه اللحظة اصبح البوسنيون يصفون انفسهم "بالمسلمين" تمييزا لهم عن الصرب والكروات وباقي الاقليات.

في عام ١٩١٢ بدأت حرب البلقان الاولى، وهي الحرب التي خاضها البلغار والصرب واليونانيون ضد الاتراك، وترتب عليها تراجع الاتراك عن المنطقة. وما ان تم ذلك إلا وانقلب حلفاء الامس على انفسهم، كل منهم يسعى إلى إقامة مشروعه القومي التوسعي الخاص به خاصة في مقدونيا التي يعتبرها كل طرف جزء من وطنه القومي الكبير. وعلى أثر ذلك بدأت حرب البلقان الثانية ١٩١٣ وهي حرب اصطدم فيها الجميع ببعضهم، وبالامبراطوريات الموجوده في المنطقة والباحثة عن حلفاء لأخذ نصيبها من تركه الرجل المريض. ومن هنا بدأت لعبة جني المكاسب ومأساة الحلول الملفقة لمشاكل البلقان والتي لا زالت سائدة حتى الآن.

ولانها حلول ملفقة ووقتية، ولان جذور الخلافات موجودة وكامنة فسرعان ما تفجرت شرارة الحرب العالمية

الاولى فى سراييفو عقب مصرع ولى عهد النمسا على يد الشاب الصربى "غافريلو برينسيب". وترتب على هذه الحرب عندما وصلت إلى نهايتها انهيار الامبراطورية العثمانية تماما وتقسيم الامبراطورية النمساوية المجرية إلى النمسا والمجر واستقلال اليونان ورومانيا وبلغاريا والبانيا، وانتعاش الحلم الصربى فى اتجاه وطنهم القومى الكبير ايضا وبدعم من بريطانيا وفرنسا تم تأسيس المملكة الصربية الكرواتية مع نهاية الحرب العالمية الأولى، وهى المملكة التى ضمت صربيا والجبل الاسود وسلوفينيا وكرواتيا والبوسنة.

بالرغم من أن إعلان تأسيس هذه المملكة أقر أنها مملكة دستورية برلمانية تساوى بين القوميات الثلاث، وتضمن حرية ممارسة الشعائر الدينية. فإن تطبيق هذا على أرض الواقع كان مختلفا حيث كانت الغلبة والسيادة للصربيين، ثم للكروات والاغفال التام لمجمل الحقوق والتطلعات القومية لباقى الاقليات داخل كيان المملكة . مع مصادرة اوقاف واملاك المسلمين وتشجيع الهجرة والاستيطان فى أراضيها.

بلغت هذه المملكة ذروتها فى عهد الملك اسكندر، ولكن سرعان ما بدأت معركة تصفية الحسابات القديمة وبرزت التناقضات بين قوميات المملكة إلى السطح من جديد. وتذايدت الحركات المناهضة للصرب بين صفوف الكروات والبوسنين، وأتخذ هذا العداء منحى عنيفا فى كثير من الاحيان - كالعادة - ووصل الأمر إلى حد اطلاق الرصاص على النواب الكروات فى أحد نقاشات البرلمان عام ٢٨. بعدها فرض الملك ديكتاتورية مباشرة على الكروات الأمر الذى رفع من حدة العداء والتناقض بينهما وانتهى الأمر باغتيال الملك عام ٣٤.

استمرت الاضطرابات حتى عام ٣٩، حيث تم إعادة تنظيم المملكة وترسيم الحدود وحصل الكروات بمقتضى ذلك على أراض جديدة. ومع إجتياح هتلر المنطقة عام ١٩٤١ حصل الكروات الذين تربطهم صلة وعلاقات بالالمان، على دعم كبير من النازيين وتشكلت منظمة اوستاش الكرواتية النازية، والتى مارست ابشع انواع القتل والارهاب ضد الصربيين حلفاء انجلترا وفرنسا والذين ، شكلوا بدورهم منظمة فاشية صربية هى الجيتنك. وبين هاتين المنظمتين الارهابيتين، اللتين شنتا افظع وابشع حروب الابادة والتطهير ضد بعضهما، كانت البوسنة الخاضعة للحكم النازى ضحية الاثنين معا، حيث استولى الصربيون والكروات على اراضيها، وقد دفعهم هذا إلى تشكيل "منظمة الشباب المسلم" لحماية انفسهم من اعتداءات الصرب والكروات، مثلما شكلوا فى الماضى فى ظل الاحتلال النمساوى "المنظمة القومية الإسلامية" والتى خاضت كفاح مسلح ضد الاحتلال النمساوى.

عموما وفى ظل هذا الصراع وهذه الحرب التى حصدت الكثير والكثير من سكان هذه المنطقة، تمكن تيتو من تشكيل حركة الانصار الشيوعية التى خاضت الحرب ضد الالمان لتحرير البلاد من النازية والفاشية. والتف حوله ابناء الاقليات الضائعون بين الصرب والكروات، خاصة البوسنيين الذين كانوا دعامة اساسية لقوات تيتو ، والذى كان شعاره هو المساواة بين جميع الشعوب والاقليات. وهو أمر يتفق مع الاطروحات الماركسية التى اعلنت حق تقرير المصير. وبهذا تمكن تيتو من اعادة تكوين يوغسلافيا الاتحادية عام ١٩٤٦ بشكلها المعروف إلى أن تفجرت أزمتها الحالية.

تيتو ويوغسلافيا الاتحادية

تكونت الجمهورية اليوغسلافية الاتحادية الشعبية - تم استبدال كلمة شعبية بكلمة اشتراكية عام ٦٣ - وفقا للنتائج النهائية للحرب العالمية الثانية، حيث إندحرت النازية الألمانية والفاشية. الإيطالية وقد لعب الجيش الأحمر السوفيتى دورا فى ذلك، ترتب عليه سيطرة السوفيت على أوروبا الشرقية واصبح على أرض أوروبا نظامان مختلفان شكلا توجهاتهم التالية فيما بعد.

تميزت الجمهورية اليوغسلافية، من البداية عن باقى دول أوروبا الشرقية، بعدم مشاركة الجيش الأحمر فى تحريرها أو دخولها إلا بعد أن تقابل تيتو وستالين، وأشترط عليه تيتو عدم تدخل الجيش الاحمر فى إدارة الشئون الداخلية، وترك البلاد متى انتفت الضرورة العسكرية. وقد وصل الخلاف بين تيتو وستالين إلى حد طرد تيتو من الكومنترن، خاصة عندما أقترح تيتو توسيع دائرة "سلاف الجنوب" بضم بلغاريا وألبانيا إلى الاتحاد اليوغسلافى. عندها استشعر ستالين أن تيتو يزاحم النفوذ السوفيتى فى الكتلة الشيوعية.

على هذا الأساس تميزت يوغسلافيا بقدر من الاستقلالية، جعلها إلى حد ما تحظى برضاء ومغازلة الغرب فيما بعد باعتبارها خارج نفوذ الاتحاد السوفيتى، وخاصة بعد تشكيل مجموعة عدم الانحياز تكونت الجمهورية اليوغسلافية الاتحادية من ست جمهوريات معترف بها كأمم يجمعها اتحاد فيدرالى وهى :

الجمهورية	العاصمة	عدد السكان بالمليون لأخر احصائيات متوفره
١ - صربيا	بلغراد	٨,٧٥٤
٢ - كرواتيا	زغرب	٥,٦٦٧
٣ - البوسنة والهرسك	سيراييفو	٥,٤٢٩
٤ - مقدونيا	سكوبجى	٢,٥٦٠
٥ - سلوفينيا	لوبليانا	٢,١١٥
٦ - الجبل الاسود	تيتوجراد	٠,٨٠٠

إلى جانب الجمهوريات الست، أضيف إلى هذا الاتحاد أقليم كوسوفو وعاصمته "بريستينا" ذو الأغلبية الالبانية المسلمة (٩٠٪) . وفويفودينا وعاصمته "نوفى صاد" ذو أغلبية مجرية وهى زوائد نتجت من تقسيم هذه المنطقة إلى دول عقب الحربين الأولى والثانية . وتم منح هذين الاقليمين حق الحكم الذاتى وفقا للدستور الاتحادى، الذى صيغ بعناية ودقة ليجمع هذا الخليط الذى يضم ٦ أمم وعشر قوميات وأعراق وأجناس أخرى.

من بداية التأسيس والتجميع لتلك الجمهوريات، كان تيتو يدرك جيدا عمق وطبيعة المشاكل التى ستواجهه داخل هذا الكيان ، أولها بالطبع الصراعات القومية والعرقية والكراهية المخزونة من جراء الصراعات السابقة. وثانيها التفاوت الاقتصادى والحضارى والثقافى بين هذه الجمهوريات، وثالثها رغبة الصرب التوسعية والعدائية للبوسنة حيث ينظر الصرب إلى شعبها بوصفهم خونة دخلوا دين الاتراك ! وربما لهذا السبب حرص تيتو على إنشاء وتجميع جمهورية البوسنة والهرسك، بعد أن كانت مقسمة بين الصرب والكروات ، ليحد من ويقطع الطريق أمام الرغبات التوسعيه لكل منهما. وأيضا لتكون هذه الجمهورية منطقة عازلة تفصل بين الكروات والصرب ، وهو أيضا نفس السبب الذى دفعه إلى تأسيس جمهورية مقدونيا

والاعتراف بلغتها كلغة رسمية للدولة. لقطع الطريق أمام الصرب ودول أخرى لها مطالب تاريخية في هذه المنطقة كاليونان اضافة إلى منح أقليم كوسوفو وفويفودنيا حق الحكم الذاتي كما أوضحنا استطاع تيتو بفضل حنكته ومهارته السياسية وشخصيته القيادية الطاغية والجامعة، والقادرة على ضبط المتناقضات الداخلية واستخدامها احيانا ان يحافظ على هذا الكيان وان يضبط الوضع العام داخله. خاصة وان شعاره الذى ضبط به المعادلة اليوغسلافية هو "لكي تكون يوغسلافيا قوية لابد وان تكون صربيا ضعيفة ادراكا منه - وهو الكرواتي- للدور الصربي في تكوين الاطار الجغرافي ليوغسلافيا ومطامعها التوسعية ورغبتها في السيطرة على شعوب المنطقة كانت اداة تيتو في ضبط هذا الكيان المتناقض والمتنافر، اعتماده صيغة الدولة الفيدرالية مع التمتع بالحكم الذاتي وصيانة الحقوق الثقافية والقومية دون التوسع في تأكيدها. خاصة بالنسبة للمسلمين الذين حظوا في عهده بقدر اعلى من الامان والاستقرار والمساواة بغيرهم من القوميات، واحتلوا مراكز سياسية هامة، ربما لانه كان يدرك ان استقرار البوسنة هام بالنسبة لاستقرار يوغسلافيا - حيث تمثل البوسنة نموذج مصغر للمجتمع اليوغسلافي في تعقيداته القومية - لكن دون الاقرار بحقوقهم القومية حتى لا يثير ذلك حفيظه الصربيين، الذى تعمد تيتو تحجيم دورهم والحد من صعودهم في اجهزة الدولة الحساسة. و برغم الاشادة بقدرة تيتو على قيادة يوغسلافيا وتوحيدها وضبط ايقاعها الداخلي، فقد كانت هناك بعض المثالب التى تؤخذ عليه الآن. منها نظام الخدمة العسكرية الذى كان يقضي بأن يؤدى ابناء أية جمهورية الخدمة العسكرية في جمهورية أخرى. وتعود اسباب هذه السياسات إلى رغبة تيتو في صهر وتوحيد الجميع في إطار

يوغسلافيا الموحدة، إلا أن هذا الامر كان يخلق حالات من الاحتكاك والتوتر فى بعض الاحيان، نتيجة للمشاعر القومية الخاصة والتى لم تكن قد اختفت وانصهرت بعد.

كذلك اتبع تيتو سياسة النقل والتوطين وهو ما كان يسمى بـ "الهندسة الاجتماعية" داخل الجمهوريات، فقام بنقل عمال من صربيا واحيانا من كرواتيا للعمل فى المصانع التى اقامها فى البوسنة والهرسك، تحت شعار ان اهل البوسنة مزارعون. وهو الامر الذى ترتب عليه وجود اقليات صربية كبيرة وكرواتية داخل البوسنة. كذلك اهتم تيتو بإقامة الصناعة الحديثة فى كرواتيا وسلوفينيا دون بقية المناطق الأخرى، مما أدى إلى ظهور نتائج سيئة تمثلت فى وجود تفاوت اقتصادى واجتماعى بين الجمهوريات، أدى إلى شعور هذه الجمهوريات بالغبن خاصة سلوفينيا وكرواتيا الأعلى دخلا. وعليه فشلت عملية الانصهار والتوحيد القومى داخل يوغسلافيا نتيجة اتباع هذه السياسة. وقد ساعد على هذا الفشل بالطبع تخلفها الاقتصادى القديم وفشلها فى تحقيق التنمية الرأسمالية مثل أوروبا الغربية. و "نتيجة لهذا التخلف الاقتصادى وتأخر النمو الرأسمالى تأخر تكوينها كأمة وفشل السلاف فى تشكيل امة واحدة بينما نجح الشعب الالمانى بالرغم من تنوع انتماءاته الدينية ايضا" (٣٧).

من هذه الخلفية التاريخية، التى توضح وتؤكد خصوصية منطقة البلقان بشكل عام ويوغسلافيا بشكل خاص، كمجتمع موزايك يتشابك ويتقاطع فيه العرقى مع الدينى. فى ظل وجود اطراف خارجية تؤثر دائما على مسار وتطور هذه المنطقة يمكننا ان نصل إلى عدة نتائج هى :

١- ان منطقة البلقان - ومنها يوغسلافيا - ارتبطت طيلة تاريخها القديم والحديث بالامبراطوريات فى هذه المنطقة

وان هذا الارتباط كانت له نتائجه وانعكاساته على الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية الداخلية الايجابية احيانا والسلبية فى أحايين كثيرة.

٢- ان هذه المنطقة كانت تستقر وتهدأ وتنعدم فيها الحروب الاهلية طالما أن الامبراطورية المسيطرة عليها قوية ومتماسكة وفى حالة صعود وازدهار، وبانهيار الامبراطورية وتفككها ينتهى الاستقرار وتسقط المنطقة فى حروبها الاهلية الدموية. حدث ذلك عندما انقسمت الامبراطورية البيزنطية إلى امبراطورية شرقية واخرى غربية، ثم اسقرت عندما احكمت الامبراطورية العثمانية قبضتها على المنطقة إلى ان ضعفت وبدأت الامبراطورية الروسية والنمساوية فى الدخول إلى المنطقة لتحل محل الرجل المريض. واستمرت هذه المنطقة فى مستنقع الحروب حتى تمكن تيتو من تأسيس النظام الشامل القوى والمسيطر والقادر على توحيد وضبط الكيان اليوغسلافى، وبرحيله بدأ الضعف والتفكك وسقطت يوغسلافيا فى بحر الحروب الاهلية مرة أخرى وكان للعامل الخارجى اثره كما سنرى.

٣- كذلك تؤكد الخلفية التاريخية السابقة ان محاولة أى طرف فرض هيمنته وسيطرته على الطرف الآخر، والتوسع على حسابه أو نفيه تماما والقضاء عليه، هى محاولة محكوم عليها بالفشل بل تقود المنطقة إلى كارثة ومذابح لا ينجو منها احد.

٤- ان هذه المنطقة شهدت صراعات دينية ومذهبية قبل دخول الاتراك اليها. سواء بغرض سياسى أو عنصرى أو خدمة لاطراف أخرى والامر الجديد فيما بعد هو دخول الاسلام طرفا

فى هذه الصراعات بعد أن خلف وراءه رافدا جديدا ثقافيا وحضاريا ودينيا.

٥- ان كثرة الصراعات فى المنطقة وارتباط ذلك بقوى خارجية أدى إلى تقسيم الشعب السلافى الواحد إلى ثلاث شعوب، وصار الدين مرادفا للقومية خاصة بالنسبة للمسلمين واصبح التمايز بين هذه الشعوب تمايزا ثقافيا وحضاريا ودينيا من السهل معالجته فى إطار التعددية الحقيقية غير العنصرية والتطبيق الفعلى لحرية الفكر والعقيدة.

٦- ان الحديث عن صراع عرقي فحسب دون الأخذ فى الاعتبار الاختلافات الدينية والحضارية والثقافية والتطلعات السياسية التوسعيه هو امر يجانبه الصواب تماما. بالذات وقد اوضحنا هنا ان الشعوب الثلاثة التى تقطن هذه المنطقة تتحدر من عرق واحد، لكنهم وعلى مر التاريخ إكتسبو سمات حضارية وثقافية ودينية مختلفة *. وبالتالى تبلورت وتشكلت ملامح شخصية قومية لها حق التعبير عن نفسها وحق الاستقلال إن ارادت. ولذا فمن حقنا ان نعتبر ان تفسير الصراع على أنه صراع عرقي فحسب هو تجاهل لعوامل أخرى، كما أنه يقدم تبريرا للصراع الدائر هناك ويمنحه نوعا من المشروعية وكأن الصراع العرقي هو أمر مقبول، علما بأنه فى حالة الصراع العرقى وحتى لا تتم ابادة عرق من قبل عرق أخر، يصبح حق تقرير المصير هو الحل الأمثل لتجنب هذا الصراع. وبالتالى يصبح حق الاستقلال هو الحق الذى يجب ان يتحقق اذا ما كان

---

*هناك من يقول بأن الكروات من أصول فارسية (اريه) وأن كلمة كرواتى قريبة من كلمة كردى كما وأن السلوفان يعتبرون أنفسهم جيرمان ولكن حتى لو أن هذا صحيح فإنه لا يبرر الحرب كحرب عرقيه ولا يقلل من تمايزهم كقومية بل يؤكد التمايز.

التعايش مستحيلا. كما وأن الحديث عن مسلمي البوسنة بوصفهم بقايا الامبراطورية العثمانية يوحى بانهم دخلاء ومستعمرون لهذه المنطقة، وهو أمر غير صحيح يصل إلى حد مشاركة الصرب فى دعاواهم الفاشية والعنصرية الأولى اضافة إلى انه يتجاهل الحقائق التاريخية التى تؤكد قيام سكان البوسنة بثورتين تحرريتين. فى عام ١٨٣٠ تم قمعها والاخرى فى ١٨٧٥ مما يؤكد وجود سمات قومية خاصة بهم مختلفة عن السمات الخاصة بالاتراك بصرف النظر عن الدين المشترك بين الاثنين.

٧- ان القوى الخارجية المتنافسة على هذه المنطقة، هى التى تلعب الدور الاساسى فى تفجيرها من الداخل عندما تكون لها مصلحة فى ذلك، يساعدها على ذلك التركيب المعقد لهذه المنطقة . وهى ايضا - أى الدول الخارجية - التى تستطيع ان تلعب دورا فى تهدئتها واعادة الاستقرار إليها اذا كانت لها مصلحة ايضا فى ذلك.

الفصل الخامس

أسباب تفجر الصراع



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بعد هذه الاطلالة على واقع البلقان عموما، يمكننا امعان النظر فى يوغسلافيا السابقة اكثر - اضافة إلى ما ذكر - لنحدد الاسباب التى ادت إلى دخولها هذا النفق المظلم المرير. خاصة وانها نموذج ووسيلة ايضاح يمكن ان نعرف منها مصير البلقان المليء بالعديد من الالغام القابلة للتفجير.

فالصراع فى يوغسلافيا القديمة ما كان من الممكن ان يتفجر بهذه القوة والحدة والعنف الدموى لولا تفاعل العديد من الاسباب الداخلية والخارجية. ولولا الميراث الدامى المسيطر على ذاكرة ابنائها ، للاستخدام دائما، عندما تكون الظروف مواتية وهو ما حدث على المستويين الخارجى والداخلى.

العوامل الداخلية من الناحية السياسية :

يعتبر غياب تيتو بما يشكله من قوة وقدرة ومهارة على ضبط الاوضاع الداخلية والحد من تناقضاتها. وقدرته على خلق نظام ايديولوجى وسياسى خاص بهذه المنطقة (التسير الذاتى - واللامركزية) التى كان يعرف ظروفها جيدا، عاملا هاما ومؤثرا فى تفجير الاوضاع. خاصة وأنه كان الطرف الوحيد القادر على امساك خيوط المعادلة اليوغسلافية جيدا فى يده - أو تعمد ذلك - وتلك عملية، بقدر ما ساعدته على ضبط الامور كانت سببا فى تفجيرها بعد رحيله. فقد ترك فراغا لم يستطع احد بعده ان يشغله، مما اصاب النظام السياسى القائم بالعجز والارتباك وفقدان القدرة على التحرك. خاصة فى ظل الأزمة الاقتصادية والتغييرات الدولية التى اعقبت وفاته ٦٠ كان تيتو من خلال الدستور الذى قام بوضعه قد أقر تكوين مجلس رئاسى يضم ممثلين عن الجمهوريات الست، والاقليمين الذين يتمتعان بالحكم الذاتى، على أن يتم التناوب على رئاسة المجلس بين هولاء

الممثلين واشترط أن تكون قرارات المجلس بالاجماع، معتبرا أن هذه الصيغة هي التي ستحقق التوازن بين القوميات وتمنع سيطرة قومية على أخرى خاصة القومية الصربية.

عقب وفاته في يناير ١٩٨٠ استمرت آلية القيادة الجماعية بشكل طبيعي في ظل التماسك الذى يحدث عادة عقب وفاة قيادة بهذا الوزن والثقل، خاصة عندما تواجهها أزمة سريعة كتلك التي حدثت في مارس ١٩٨١ حين تمرد ألبان كوسوفو تحت وطاة الأزمة الاقتصادية التي تعاني منها البلاد عامة وكوسوفو خاصة.

في تلك الأزمة عبر البان كوسوفو عن رغبتهم في الانفصال، بل دعى بعضهم إلى ضم ألبان الجيل الأسود إلى جمهوريتهم المأموله، والتي يرغبون في ضمها إلى جمهورية ألبانيا الأم. كانت هذه أول أرهاصه بتفكك يوغسلافيا وأول محنه يواجهها المجلس الرئاسي وتم قمعها بعنف والارجح أن هذه الأزمة أدت إلى تماسك المجلس وتأجيل تناقضاته إلى أن تفجر وحدثت أول أزمة دستورية عندما رفضت صربيا والجبل الأسود انتقال الرئاسة إلى الممثل الكرواتي وفشل المجلس في الوصول إلى الاجماع بعد أن رحل الرجل القادر على إحداث الأجماع.

مع تصاعد حدة الأزمة الاقتصادية، وارتفاع نسبة التضخم وأنخفاض قيمة العملة وتفاوت نسب الدخول نتيجة للتفاوت الاقتصادي بين الجمهوريات وجدت النعرات القومية المتطرفة وقودها الذى تتغذى عليه، واصبح لسان حال البعض "إنج سعد فقد هلك سعيد" وأزداد الأمر تعقيدا بعد أن بدأت عصبة الشيوعين ذاتها السير في هذا الاتجاه القومي بحثا عن حلفاء، واستثمارا لتلك النزعة والتي أزاد لهيبها المثقفون الصرب.

وسرعان ما بدأت القيادات الصربية الشاعرة بالغبن فى استخدام النعرة القومية المتعصبة كايديولوجيا بديلة، تملأ بها الفراغ الناتج عن انهيار الايديولوجية الشيوعية. وبدأت فى احياء المشاعر القومية الصربية، ولعل مسيرة "نعش" القائد الصربى التى سبق ذكرها تؤكد ذلك، هذا بالاضافة إلى الوثيقة التى اقرتها اكاديمية العلوم والفنون الصربية عن الاوضاع القائمة فى يوغسلافيا وموقف الصرب منها، وهى الوثيقة التى صدق عليها وتبناها ميلوسيفتش منذ ٧ سنوات "حيث انتقدت هذه الوثيقة تيتو - الكرواتى - وشعاره كلما كانت صربيا ضعيفة زادت يوغسلافيا قوة، واعتبرت ان هذا النظام ادى إلى تقدم كبير فى كرواتيا وسلوفينيا على حساب الاجزاء الاخرى وخاصة صربيا التى تعمد تيتو اضعافها " (٣٨).

وكما نرى فإن هدف هذه الوثيقة هو ايقاظ الروح القومية الصربية وذلك من خلال التأكيد على تعمد تيتو اضعاف صربيا، وهو ما أدى إلى تغذية وبروز روح عدائية ومتعصبة وعنصرية داخل الصرب تجاة الجمهوريات الأخرى وتزايد المخاوف داخل الجمهوريات الاخرى من الصرب. خاصة وان الوثيقة تحدثت عن اوضاع الصربيين فى كرواتيا والبوسنة. وكرد فعل بدأت روح الاستقلال تنمو وتتزايد داخل الجمهوريات خوفا من ان يجتاحهم المد الصربى المتطرف. ومما زاد الخوف من الهيمنة الصربية القادمة أنه فى الوقت الذى بدأت تتصاعد فيه روح الاستقلال داخل بعض الجمهوريات مع تصاعد المطالبة بالتعددية الحزبية وخاصة بعد انهيار أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى، الغت القيادة الصربية الاستقلال الذاتى الذى كان يتمتع به اقليم كوسوفو وفويفودينا بموجب دستور ٧٤ وهو اجراء يمكن وصفه بأنه بمثابة بالون اختبار لباقى الجمهوريات ". وفى ظل هذا

الوضع كان من الطبيعى ان تتصاعد المشاعر القومية المماثلة بين القوميات الاخرى دفاعا عن النفس مما دفع الكروات والسلوفان والمسلمين إلى اختيار طريق الاستقلال كأجراء وقائى فى مواجهة الهيمنة الصربية المتنامية" (٣٩).

فى ظل هذا المناخ طالبت سلوفينا بتحويل الحزب إلى تحالف بين الروابط الفرعية. ونتيجة لرفض الصرب انسحبت رابطة سلوفينيا ثم كرواتيا وقاما بعمل انتخابات مستقلة داخل كل جمهورية (ابريل، مايو ١٩٩٠) ولم يكن أمام البوسنة إلا أن تسير فى نفس الطريق فيما بعد. واعادت صربيا تشكيل حزبا جديدا فى الاسم حيث تحول اسم الحزب من الحزب الشيوعى الصربى إلى الحزب الاشتراكى الصربى. وبدأت عملية تشكيل الاحزاب فى الجمهوريات حتى وصل عددها إلى ٢٥٠ حزب، وقد اسفرت نتائج الانتخابات التى تمت فى ظل التعددية عن فوز الأحزاب القومية فى كرواتيا وسلوفينيا ومقدونيا والبوسنة والهرسك بينما فاز الشيوعيون - القوميون أيضا - فى صربيا والجبل والاسود.

كان الشكل العام فى البداية يوحى بأن عملية التغيير من الممكن ان تسير بشكل سلمى وهادىء - عكس أوروبا الشرقية - حيث تم اقرار التعددية وتم تشكيل الاحزاب. أو بمعنى ادق تم تفتيت الحزب الشيوعى القديم إلى احزاب جديدة باسماء جديدة **وبنفس القيادات الشيوعية المحلية. والتى انتقلت بخفة ويسر من** الشيوعية إلى القومية الفاشية باستثناء البوسنة ورئيسها الذى امضى فترة من حياته سجينا فى ظل النظام السابق.

ولكن القيادات الجديدة / القديمة والمتنافسة والتى تشكل بقايا الطبقة الحاكمة السابقة فى يوغسلافيا لم تجد وسيلة " لكى تكتسب الشرعية الا ان تستخدم القومية. وبدأت سلوفينيا وكرواتيا

يسعيان للتخلص من الفيدرالية التى فرضت عليهما دعم الجزء الجنوبى (٤٠) وبالطبع رفض العرب ذلك وتزعمت جمهورية صربيا والجبل الأسود اللذان يعتبران أنفسهما ورثة يوغسلافيا القديمة الدعوة إلي بقاء الصيغة الاتحادية الفيدرالية وأيد الجيش الاتحادى أيضا هذه الصيغة.

كان الأصرار الصربى على بقاء الصيغة الفيدرالية كما هى فى ظل تصاعد القومية الصربية وزعامتها للاتحاد يعنى وقوع باقى القوميات تحت هيمنتها وبالتالى تحقيق حلم صربيا الكبرى فى مواجهة هذه الصيغة طرحت كرواتيا وسلوفينيا صيغة الكونفدرالية، والتى يترتب عليها تفكيك الفيدرالية القديمة. ثم طورت سلوفينيا الاقتراح إلى تكوين كيانين يضم كل منهما – طوعا – الدول الراغبة فى الفيدرالية والاخر الدول الراغبة فى الكونفدرالية، على ألا يتم أى تعديل فى الحدود الخاصة بكل جمهورية. وهذا يعنى فتح الطريق أمامها للاستقلال عن صربيا. أما البوسنة فقد طرحت حلا وسطيا يقضى باستقلال الجمهوريات الست فى ظل اتحاد كونفدرالى، مع الاعتراف بخصوصية وحدود كل كيان وسيادته على أرضه وأن يكون لكل جمهورية حقها فى رسم سياستها الخارجية، واقامة تمثيل دبلوماسى خاص بها مع قيام سوق مشتركة بين الجمهوريات وبالطبع كان الطرح البوسنى هو الاقرب جدا إلى مصالحها. فالاستمرار فى الكونفدرالية بهذه الشروط يعني الحفاظ على كيانها كدولة، أما الصيغتين السابقتين فأحلاهما مر، لانها نجت من صربيا سقطت فى كرواتيا.

والحقيقة أن هذا الطرح كان هو الطرح الأمثل لأنقاذ يوغسلافيا من محنتها وتجنب القتال. ولكن تعارض هذا الطرح

مع مشروع صربيا التوسعي ومشروع كرواتيا وسلوفينيا الانفصالي حال دون الموافقة عليه.

مع عدم الوصول إلى حل يرضى جميع الاطراف بدأت معركة الاستفتاءات حول الاستقلال ولان سلوفينيا ليس لديها أقلية صربية ذات وزن، فقد شرعت فى اتخاذ أول خطوة عملية فى اتجاه الاستقلال والانفصال حين أوقفت العمل بالقوانين الاتحادية واعطاء الأولوية للقوانيين المحلية الخاصة بها، بما يعنيه ذلك من اقامة مؤسساتها الخاصة. وتبعها فى هذا الاتجاه كرواتيا، وهنا ظهر وبرز دور المؤسسة العسكرية والجيش الفيدرالى خاصة فى ظل عجز مجلس الرئاسة الشاغر فيه منصب الرئيس عن تجاوز الأزمة أو حتى فى ظل الممثل (الصربى). وعلى ما يبدو كان الهدف من ابقاء المنصب شاغرا حينما تم الاعتراض على الممثل الكرواتى هو ألا يصبح هذا الكرواتي قائدا عاما للجيش وفقا لنص الدستور وبالتالى تصبح يد المؤسسة العسكرية والجيش حرة طليعة وهو ما حدث فعلاء خاصة وأن الجيش يتمتع بمميزات خاصة شعر أنه سيفقدها اذا ما تم الانفصال والتفكك. وبذلك تمت المواجهة الدامية بين الجيش الاتحادى وسلوفينيا ولكن سرعان من تم احتواء الموقف. وكذلك بين الجيش وكرواتيا والتى وصلت زروتها بتدمير مدينة فوكوفار الكرواتية وحدث التدخل الأوروبى أيضا لوقف تلك الحرب. **ولكن مع البوسنة كان الوضع مختلفا وكان نصيبها من** العنف أفظع وأشد حيث رفض الجيش الاتحادى الانسحاب حتى لا يكرر الخطأ السابق حين انسحب من سلوفينيا وكرواتيا خاصة وأنه لاحظ عدم الاهتمام الغربى بالبوسنة عكس اهتمامه السابق بكرواتيا وسلوفينيا.

العوامل الداخلية من الناحية الاقتصادية :

فى ظل الفيدرالية والإدارة الذاتية التى تمنح الجمهوريات والاقاليم نوعا ما من الاستقلالية، وهو المشروع الذى تبناه تيتو. تضاعفت الفوارق الموجودة اصلا بين الجمهوريات حين تغلبت المصالح المحلية. وهو امر كان من الممكن التغلب عليه كما يرى سمير امين "لولا ان التسيب داخل اجهزة الرقابة ازداد عقب وفاة تيتو وشهدت يوغسلافيا انفتاحا اكبر على آليات السوق وعلى المنافسة الدولية وصفق الغربيون بشدة لهذه التطورات وجاءت النتيجة المتوقعة : تزايد الفوارق فى التنمية الاقليمية فى الوقت الذى كان النظام العالمى قد بدأ يواجه ازمة انعكست على يوغسلافيا بعنف تمثل فى تراجع حجم الصادرات اليوغسلافية إلى الاسواق العالمية وتزايد المنافسة داخل يوغسلافيا لمواجهة هذا" (٤١).

وهذا الأمر ايضا أكده "جوزية مينسينجر" استاذ الاقتصاد والنائب السابق لرئيس الوزراء السلوفينى حيث "أرجع الكساد الاقتصادى إلى انهيار الاسواق اليوغسلافية الداخلية الذى بدأ مع سقوط الموازنة الاتحادية ومقاطعة الصرب للبضائع السلوفانية والكرواتية. وذلك قبل ان يحدث الانفصال السياسى ولم يعد هناك وجود للسوق اليوغسلافية الموحدة اعتبارا من عام ١٩٩٠" (٤٢).

وطبقا للبيانات التى اوردها بلغ الانتاج الصناعى عام ١٩٩٢ فى سلوفينيا ٧٠٪ وفى الصرب ٥٥٪ وفى كرواتيا ٥٠٪ مما كان عليه فى عام ١٩٩٠ وعن الصادرات امكن لسلوفينيا ان تبقى فى عام ١٩٩٢ على المستوى ذاته فى عام ١٩٩٠ وبلغ معدل التناقص فى كرواتيا ٢٥٪ أما فى صربيا فقد بلغ التناقص ٥٠٪ (لا توجد أى بيانات اقتصادية عن البوسنة).

هذه الفوارق وهذا التباين في المستويات الاقتصادية.
ساعد على تفاقم الأزمة وزاد من الشعور بعدم المساواة وعجل من شن الحرب الاقتصادية بين الجمهوريات، واعلى من شأن النزعات القومية. وكانت الجمهوريات ذات المستوى الاقتصادى الاعلى اكثر الجمهوريات رغبة وتطلعا إلى الاستقلال واكثرها استعدادا لذلك مثل سلوفينيا وكرواتيا.

وهكذا ونتيجة لوجود اطراف داخلية ترغب فى توسيع حدودها وفرض هيمنتها، وحل ازمتها الاقتصادية مثل صربيا أو التخفف من عبء الآخر مثل سلوفينيا وكرواتيا. واطراف خارجية لها مصلحة فى حدوث ذلك، تفجرت الاوضاع بهذا الشكل الدموى الحاد واستحضرت بعض الاطراف اسوأ ما فى الذاكرة من تاريخ واستخدموا التعدد الدينى والمذهبى والذى اصبح يمثل هوية قومية اسوأ استخدام وكانت البوسنة بما تمثله من نموذج جيد قابل للتعايش هى الضحية بين الاطراف المتصارعة، لانها تمثل مجالا حيويا هاما لكل من صربيا وكرواتيا حيث تقع بينها وتعتبر النواة المركزية لتحقيق أى حلم توسعى يحقق صربيا الكبرى أو كرواتيا الكبرى. يضاف إلى كل ذلك أن البوسنة هى النموذج المصغر والمجسم للحالة الفسيفسائية التى يتسم بها المجتمع اليوغسلافى حيث يوجد بها اكبر اقلية صربية خارج حدود صربيا وأيضا اقلية كرواتية. مع وجود حدود مشتركة بين الاقلية الصربية الموجودة فى البوسنة والاقلية الصربية الموجودة فى كرواتيا وهى منطقة شهدت صراعا عنيفا بين الصرب والسلطات الكرواتية حين اعلن هذا الاقليم استقلاله ودعى إلى الاتحاد مع صربيا.

وما بين رغبة سلوفينيا وكرواتيا فى الاستقلال ورغبة الصرب فى بقاء الاتحاد كان الموقف البوسنى وسطى وتوفيقى

بين الاثنان كما أوضحنا رغبة منها فى بقاء معادلة التعايش ولذلك طرحت الحل السابق ذكره، والذى قوبل بالرفض من جميع الاطراف الفاعلة فى الواقع اليوغسلافى. ربما لان كل منهم يعرف ماذا يريد بالضبط وكان قد أعد العدة لتحقيق ذلك. وباعلان استقلال كرواتيا وسلوفينيا عام ١٩٩١ اصبح موقف البوسنة حرجا فهى لا تستطيع ان تبقى جزءا من يوغسلافيا الجديدة (صربيا والجبل الاسود) تحت زعامة الصرب، الذين كشروا عن انيابهم واظهروا رغبتهم التوسعيه. وعليه فقد اعلنت انها لن تستطيع الاستمرار فى اتحاد لا يضم كرواتيا وسلوفينيا وأجرت استفتاء على الاستقلال أيده البوسنيون المسلمون والكروات وبعض الصرب. وكانت نتيجة الاستفتاء ٦٨٪ فى حين امتنع باقى الصرب عن المشاركة وسعوا إلى الغاء الاستفتاء ومنع حدوثه بكل الوسائل بما فيها استخدام المتفجرات، حيث طالبوا ببقاء البوسنة مع يوغسلافيا الجديدة والا فانهم سيعلنون استقلالهم والانضمام إلى صربيا. وتفجر الصراع بين الجيش الاتحادى وصرب البوسنة من جانب ومسلموا وكروات البوسنة من جانب آخر بعد ان كان قد اشتعل من قبل بين صربيا وكرواتيا، ولكن الاطراف الأوروبية استطاعت وقف هذا النزاع سريعا حين اجبرت الجيش الاتحادى على الانسحاب من سلوفينيا وكرواتيا بعكس البوسنة التى رفض الجيش الاتحادى الانسحاب منها وعندما فعل ذلك نتيجة لبعض الضغوط الخارجية جاء انسحابه انسحابا شكليا فقد ترك خلفه ٨٠ الف مقاتل صربى من قوات الجيش بحجة انهم من صرب البوسنة وتغافل المجتمع الغربى عن ذلك.

وفى هذا الشأن نلاحظ :

١- ان البوسنيون من خلال الطرح السابق أو تطويره في اتجاه قيام أتحاد فيدرالى بين صربيا والجبل والأسود وأخر بين كرواتيا وسلوفينيا والثالث بين البوسنة ومقدونيا، على أن تشكل هذه الاتحادات الثلاث اتحادا كونفدراليا يجمعها ويحافظ على وجود الكيان اليوغسلافى، لم تكن لديهم من البداية رغبة في الاستقلال والانفصال بشكل كامل. ولكن فقط تحقيق شروط افضل وسيادة أعلى فى دولتهم والمحافظة عليها بحدودها دون تجزئة أو انفصال. اضافة إلى انهم ليس لديهم اية مطامع توسعية فى الاقاليم الاخرى مثل صربيا وكرواتيا.

٢- ترتب على هذا الموقف وهذه الرؤية انهم لم يعدوا العدة للدفاع عن استقلالهم فى حالة اعلانه عندما دفعتهم الظروف لذلك. مثلما فعل الآخرون حيث شرعوا منذ مدة طويلة فى تخزين السلاح وتشكيل الميليشيات منذ وقت مبكر.

٣- ان البوسنيين راهنوا بقدر مبالغ فيه على الموقف الدولى والشرعية الدولية والنظام العالمي الجديد... الخ وتصوروا ان ذلك كاف للدفاع عن دولتهم طالما انها نالت الاعتراف الدولى، واصبحت عضوا بالأمم المتحدة كدولة ذات سيادة بحدودها التى حددها دستور يوغسلافيا السابقة عام ١٩٧٤ وهو موقف دفعت البوسنة ثمنه ولا زالت تدفع حتى الآن لانها لم تدرك ان الغرب له رؤى ومصالح اخرى مختلفة عما نتوقعه. وان آليات النظام الجديد تعيد رسم الخريطة العالمية بطريقتها هى كما فعلت فى الماضى ايضا - ولم تكن الخريطة أيضا فى صالح البوسنة - وان الغرب فى النهاية سيكون فى صف مصالحة وبجانب ابناء حضارته وثقافته اذا انعدمت المصالح أو كانت غير محددة وغير واضحة أو متشابكة ومتداخلة.

نتيجة لكل ذلك اصبح الصـراع صراعا غير متكافىء، صراعا بين جيش صربى اتحادى يملك العتاد والمعدات وميليشيا صربية بوسنوية اعدت نفسها لمثل هذا اليوم. وبوسنيون مسلمون لا يملكون نفس القدر من العتاد يساعدهم - أحيانا - كروات هم إلى حد ما متآمرون مع الصرب على البوسنة - فى المدى البعيد - اضافة إلى ان البوسنة لا توجد لها حدود مع دولة "أم" مؤيدة لها تقدم لها الدعم والعون. بعكس صربيا التى تقف بجوارها دول عديدة تؤيدها وتساندها وتمدها بالسلاح حتى فى ظل الحظر المفروض عليها . وكرواتيا التى أمدها الالمان بما يجعلها قادرة على الدفاع عن استقلالها. وفاقم من هذا الوضع ووصل به إلى حد المأساة قرار الحظر الذى فرضته المجموعة الأوروبية والأمم المتحدة على يوغسلافيا السابقة. وهو القرار الذى لم يكن فاعلا إلا فى مواجهة البوسنة فقط وهو أمر لا نعتقد أنه صدفة خاصة وانه مستمر حتى الآن، بالرغم من أن نتائجه السيئة قد ظهرت على ارض الواقع لصالح صربيا التى تملك مصانع سلاح اصلا. ورغم ذلك ورغم كل المجازر، لم يتم التراجع عنه بحجة أنه سيزيد من حدة القتال. وكأن القتال اصلا ليس حادا وكأنه ليس هناك شعبا يذبح ويقتل ويشرد وهذا لغز لا يمكن تفسيره إلا فى ظل متابعة الموقف الدولى من حيث الفعل وليس القول.



الفصل السادس

الأطراف الدولية الفاعلة فى الأزمة



انتهينا إلى أن الأزمة اليوغسلافية هي محصلة تفاعل عوامل داخلية كامنة في صلب تكوين الكيان اليوغسلافي، ونظامه السياسي والاقتصادي بالاضافة إلى عوامل خارجية تزامنت معها وتحكمت في توجيه مسارها في هذا الاتجاه عقب انتهاء الحرب الباردة. فنحن لا يمكننا التعامل مع المشكلة اليوغسلافية بمعزل عن التغيرات الجذرية التي تمت في أوروبا سواء إنهيار المعسكر الشرقي والاتحاد السوفيتي ، أو اتجاه أوروبا الغربية إلى الوحدة والاندماج ومحاولة كل طرف اوروبي تأكيد وتثبيت اوضاعه في ظل المتغيرات الجديدة وهي متغيرات إلقت بظلالها على الأزمة كما سنرى.

فمن الغريب انه في الوقت الذي تتجه فيه أوروبا إلى الوحدة تتجه يوغسلافيا - والاتحاد السوفيتي طبعا - إلى التفتيت. وهنا يبرز سؤال هل تفتيت يوغسلافيا بهذا الشكل يخدم تلك الوحدة ويزيد من قوتها ؟ أم يدعم بعض الاطراف ويحقق لها الصدارة والقيادة ؟

الاجابة على هذا السؤال تكشف لنا السبب في تباين المواقف الأوروبية وعدم قدرتها على اتخاذ موقف موحد بشأن هذه الأزمة المتفجرة في قلب القارة، والتي تنذر بعواقب وخيمة على المدى البعيد، إلا إذا كان مسار الأزمة معروفا ومحسوبا ومحددا سلفا ؟ وهذا ما سوف يظهر لنا من تتبع مسار الأزمة واسلوب الحل المتبع فيها فيما بعد.

الموقف الأوروبي :

منذ أن بدأت ملامح الأزمة اليوغسلافية في الظهور أبدت معظم الأطراف الإقليمية والدولية تخوفها من الصراعات الداخلية ، وحرصها على عدم تدهور الأوضاع وإنهيار

يوغسلافيا ورفض العنف أو أعتماد القوة في حل الأزمة. ومع تفجر القتال اكتفت أوروبا بإصدار بيانات تدين القتال وتطالب بعدم تغيير الحدود الداخلية والخارجية إلا بموافقة جميع الاطراف. وبعد فترة فرضت حظرا على بيع السلاح ليوغسلافيا كاملة.

كانت خطوات التحرك بطيئة وغير حاسمة إلا فى حالة سلوفينيا ثم كرواتيا وقد ساعد ذلك على استمرار الصراع وتفاقمه فى البوسنة فى وقت كان من المفترض أن تثبت أوروبا قدرتها على التعامل مع التهديدات التى تؤثر على أمنها المباشر.

لقد اثبتت الأحداث محدودية وهامشية الدور السياسى والعسكرى لدول أوروبا داخل حدودها، كما أكدت فشلها فى صياغة سياسة خارجية وأمنية مشتركة لاختلاف المصالح الاقتصادية والسياسية وبالتالى الأمنية، والأكيد أن رواسب الماضى حكمت الأزمة اليوغسلافية وخيمت على رءوس أوروبا وأعادت إلى ذاكرتها صراعات ما قبل الحرب العالمية الثانية. وفى هذا الصدد نلمح فى الموقف الاوروبى اتجاهين.

الاتجاه الأول :

مع التفتيت وهو الاتجاه الذى تقوده المانيا والنمسا وتؤيده على حياء إيطاليا. حيث وجدت المانيا التى انكسر حلمها القديم الفرصة سانحة امامها – بعد ان صارت القوة الاقتصادية الأولى فى أوروبا – كى تعيد امبراطوريتها المفقودة بطريقة جديدة، وذلك بأن ترث هى الدول التى خلفها الاتحاد السوفيتى وراءه.

لذلك كانت المانيا هى أول دولة اوروبية تعترف بكرواتيا التى تربطها علاقات قديمة بالمانيا، والتى ستكون بمثابة رأس السهم الذى تتوجه بـه المانيا إلى دول أوروبا الشرقية، "فهناك رغبة المانية قديمة تهدف إلى التوسع نحو الشرق وتحويل

الشرق والجنوب الاوروبى إلى أمريكا اللاتينية التابعة لها" (٤٣) لذلك كان الموقف الالمانى المؤيد للكروات والمتعاطف مع البوسنة والداعى إلى استخدام القوة ضد الصرب يتسق مع مصالحها وطموحاتها وعدائها التقليدى للصرب، بوصفهم القوى المنافسة للطموحات الالمانية والساعيه للسيطرة على شعوب يوغسلافيا السابقة. خاصة وانهم حلفاء روسيا الجديدة الراغبة ايضا فى استعادة مجدها المفقود فى أوروبا الشرقية من خلال الصرب.

بهذا الاعتراف المبكر خرجت المانيا على الاجماع الاوروبى الذى كان لازال ينتظر قرار لجنة التحكيم، التى تبحث مدى التزام الجمهوريات اليوغسلافية بالشروط التى وضعتها المجموعة الأوروبية للاعتراف بهذه الجمهوريات، ووضع هذا الاعتراف أوروبا امام واقع جديد "ساعد على إذكاء الصراع" كما قال كريستوفر فيما بعد.

وما بين قوة المانيا ورغبة البعض فى التعلق بها مثل فرنسا ، حيث يلعب المارك الالمانى دورا كبيرا فى دعم الفرنك الفرنسى ، انحازت فرنسا إلى جانب المانيا. وان كانت احيانا تتسق مع بريطانيا وتلعب دورا كابحا فى اللحظات الفاصلة خاصة زيارة ميتران لمطار سراييفو ليؤكد انه مفتوح ويقطع الطريق أمام محاولة المانيا دفع الدول الأوروبية والأمم المتحدة لاتخاذ قرار بالتدخل عسكريا فى البوسنة لحماية الكروات بالاساس اضافة إلى لقاءه بميلوسيفتش فى محاولة منه لدفع عمليات السلام بالضغط على صرب البوسنة واثبات عدم عدائه للصرب وتجميل وجه ميلوسيفتش.

الاتجاه الثانى :

وهو اتجاه يخشى من تفتيت يوغسلافيا إلى دول مستقلة خوفا وخشية من أن يؤثر هذا الأمر على الاقليات الموجودة لديه، واليونان تحديدا هى خير مثال على ذلك. وقد لعبت اليونان دورا مؤثرا داخل المجموعة الأوروبية لدعم الصرب والوقوف ضد اتخاذ أى اجراءات عسكرية ضدهم، فاليونان تخشى من استقلال مقدونيا وأثر ذلك على الجزء المقدونى اليونانى، فقد يطالب بالانضمام إلى مقدونيا الجديدة. وقد اشترطت اليونان للاعتراف بمقدونيا ان تغير اسمها وان تنص فى دستورها على انها ليس لها مطامع خارجية لا حقوق تاريخية.

وبين هذين الاتجاهين ظل الموقف البريطانى فى الظاهر لا مباليا وان كان يلعب دورا لصالح الصرب حلفاءهم القدامى، وذلك بهدف الحد من الطموح الألمانى. وقد تم ذلك من خلال الوسيطين البريطانيين اللورد "كارينجتون واللورد اوين" حيث كان دورهما الاساسى هو تحذير وتهديد الطرف البوسنى والضغط عليه لصالح الصرب عادة. فكثيرا ما هدد اللورد كارينجتون بالانسحاب من الوساطة ووقف عمليات الإغاثة اذا لم يغير الطرف البوسنى مواقفه . وهو ما فعله اللورد اوين طوال فترة وساطته بشكل اكثر حدة ووضوحا حيث عارض فكرة رفع الحظر عن السلاح للبوسنة واعلنها واضحة "ليس امامكم إلا القبول أو الموت". لقد كان الصرب يمهدون الارض بالسلاح لفرض الامر الواقع على العالم والبوسنة وكان اوين يواصل هو الآخر تأكيد وتثبيت هذا الامر من خلال الضغط على المفاوض البوسنى لقبول هذا الواقع.

وقد عارضت بريطانيا دائما فكرة التدخل العسكرى بحجة حماية افراد قوات الأمم المتحدة فى البوسنة. وهو ما جعل

رئيس البوسنة يطالب بسحب هذه القوات والمرجح ان هذا الموقف البريطانى فى جوهره ما هو إلا محاولة بريطانية لعرقلة المشروع الالمانى فى المنطقة. خاصة وان الحرب تفجرت اثناء محاولة عقد مؤتمر لزعماء البلقان (١٩٩١) لوضع اسس السوق البلقانية المشتركة والاتفاق على النظام والقواعد التى تحل مشاكل النزاع بين الاقليات وحقوقها وما يتفرع عنها وهو سوق لو تشكل سيكون للألمان بوصفهم القوة الاقتصادية النصيب الأكبر والفعال فيه. إضافة إلى أنه مشروع كان كفيلا بخلق مصلحة مشتركة بين دول البلقان قد تدفعهم إلى حل الخلافات بينهم بوسيلة اخرى غير السلاح والتوسع. هذا الموقف البريطانى وصفه نائب رئيس البوسنة بقوله "إن الانجليز يرغبون فى خلق فوضى فى البلقان لذا فهم يحتاجون إلى رعاه البقر الصرب لتعاد المنطقة من جديد إلى حظيرة الاستعمار الاقتصادى.

وهكذا لعب اختلاف المصالح والتوجهات بين الاطراف الأوروبية دورا حاكما فى مواقفها. إضافة إلى نظرتها للحرب الدائرة بأنها حرب أهلية داخلية وليس عدوانا من صربيا واحيانا من كرواتيا على البوسنة يضاف إلى كل ذلك وجود خوف حقيقى لدى الاطراف الأوروبية من قيام دولة صربية كبرى أو دولة إسلامية فى قلب أوروبا. وكانت الحرب الدائرة فرصة لتحطيم الاثنين معا إذا امكن وان كان الطرف الكرواتى هو المستفيد الأول من ذلك.

الموقف الروسى :

كان أكثر المواقف وضوحا وفاعلية فى دعمه للصرب وفى خرقه لقرارات الحظر المفروضة على الصرب حتى ان صحيفة بولتيكا اليوغسلافية قالت : "إن هناك ضغوطا روسية

قوية على امريكا وفرنسا لوقف التهديد بالتدخل العسكرى لدرجة ان ميتران عدل عن موقفه - بعد الضغط الروسى - ونـدد بمثيرى الحروب الذين يطالبون فرنسا بالتدخل العسكرى فى البوسنة (٤٤). وأكد دبلوماسى روسى "ان يلتسين يعتبر يوغسلافيا خطا أحمر وهو مستعد للقبول بتكدر فى علاقاته مع امريكا اذا طالبت بتدخل عسكرى ضد الصرب. وأضاف أن الجولات التى قام بها وزير الخارجية الروسى فى يوغسلافيا فتحت عينيه على مصالح روسيا الفعلية هناك" (٤٥). لقد ادركت روسيا اهمية الصرب لها فى اعادة ترتيب اوضاعها الداخلية واستعادة نفوذها المفقود مرة أخرى فى دول المعسكر الاشتراكى السابق. وفى ظل منافسة المانية فإن اعادة ترتيب يوغسلافيا مرة اخرى تحت زعامة الصرب سيؤدى إلى نجاح هذا التوجه الروسى اللجديد اضافة إلى استخدام الصرب ودعم الروس لهم كورقة للمساومة مع القوى الغربية وامريكا وهو ما حدث فقد وصل الأمر إلى حد استخدام البوسنة بكل ما فيها من جرائم مذابح ورقة فى دعم موقف يلتسين داخليا فى مواجهة خصومه الذين يتهمونه بالخيانة القومية والسير فى فلك امريكا، وتم إرجاء التصويت على قرار بتشديد العقوبات ضد الصرب إلى ما بعد الاستفتاء داخل روسيا دعما ليلتسين" الذى يواجه ضغوطا متزايدة من جانب البرلمان الروسى من أجل معارضة فرض عقوبات أخرى على جمهورية الصرب" (٤٦).

وقد تم ذلك "فى اطار الصفقة الأمريكية الروسية حيث وافق كلينتون على طلب الرئيس الروسى بالتأجيل اثناء اللقاء الذى تم بينهم فى فانكوفر حتى لا تتأثر شعبية يلتسين امام منافسيه فى البرلمان " (٤٧) وكان كلينتون قد صرح من قبل "ان روسيا هى التى تقف وراء عدم التدخل العسكرى فى البوسنة

نتيجة للعلاقات التاريخية بين روسيا والصرب واشار إلى ان التدخل العسكرى ضد صربيا يعرض موسكو للخطر" (٤٨) وموسكو فى الادبيات السياسية الأمريكية ليست سوى يلتسين وتوجهاته في مواجهة خصومة السياسين. وعلى هذا الأساس تم مراعاة يلتسين على أمل أن يلعب دورا فى الضغط على الصرب عقب الاستفتاء، ولكن مشاكل يلتسين ومشاكل روسيا الداخلية لن تنتهي والانتخابات البرلمانية على الأبواب ولابد من مراعاة ذلك أيضا. وجاء نجاح جرينوفسكى القومى الروسى المتطرف وحزبه الليبرالى فى انتخابات ديسمبر ٩٣ ليعمق من روح التضامن الروسى مع الصرب خاصة فى ظل المزايدة المتبادلة بين الطرفين حول أيهما أكثر إخلاصا للأمة السلافية ووصل الأمر إلى حد أن جرينوفسكى فى أعقاب جولة له فى البقان أعلن أن قصف أى بلده صربية هو بمثابة إعلان حرب على روسيا.

لقد استطاعت روسيا أن تلعب دورا فعالا فى الأزمة اليوغسلافية لصالح الصرب عموما. مستغلة فى ذلك التخبط والتردد الغربى والخوف من وجود دولة بوسنيه موحده ذات أغلبية مسلمه، حتى عندما وافقت على فرض عقوبات اقتصادية على بلجراد فقد كان ذلك شكليا، لأنه من الناحية العملية استمر دعم روسيا للصرب وابقت على الاتصال الدائم بالعالم الغربى من خلال هذه الموافقة الشكلية. وبذلك تمكنت من أن تلعب دورا أفضل لصالح الصرب واستثمرت هذه الأزمة جيدا لتؤكد للجميع التزامها التاريخى تجاه الصرب وأهمية دورها - أى روسيا - فى النظام العالمى الجديد وضرورة عدم تجاهلها فى أى تسوية تخص يوغسلافيا أو دول أوروبا الشرقية.

من أجل كل هذا أصبح الصراع فى البوسنة بكل ما فيه من وحشية ولا انسانية وجرائم خاضعا بالأساس لصراعات

روسيا الداخلية والتفهم الأمريكي لكل ذلك، ومراعاة المصالح الأمريكية الروسية المشتركة من خلال دعم طرف في مواجهة طرف آخر. باختصار أصبحت المشكلة اليوغسلافية ومحنة شعب البوسنة فرصة تستعيد بها روسيا دورها كقوى عظمى ولو في هذه المنطقة وأنحصر الهدف الأمريكي في مساعدة يلتسين للحد من نفوذ الشيوعين والقومين حتى ولو كان ذلك على حساب البوسنة وفناء شعبها.

الموقف الأمريكي :

يقول جوناثان آيل مدير المعهد الملكي للخدمات الموحدة "ان الصراع في يوغسلافيا كان متوقعا قبل حدوثه بسنوات وجهاز الـ A .I. C توقع بدقة متناهية متى سيبدأ، واطلعت على هذا التقرير كل الحكومات بل أن جيمس بيكر بعد اطلاعه على التقرير وقبل بدء الصراع بخمسة ايام فقط زار يوغسلافيا وقال لا شيء سيحدث وان يوغسلافيا ستبقى موحدة" (٤٩).

وقبلها اعلنت امريكا انها لا تحبذ تفكك يوغسلافيا. والأرجح أن مثل هذه التصريحات جعلت الصرب يفهمون ان من حقهم منع التفكك ولو باستخدام القوة.

لقد وجدت امريكا الفرصة سانحة أمامها لتؤكد عجز أوروبا عن مواجهة مشاكلها الداخلية وعدم قدرتها على حفظ الأمن والاستقرار داخلها خاصة وان هناك محاولة المانية فرنسية لتشكيل جيش اوروبي يتولى امن القارة مما يعني الحد من التواجد الأمريكي داخل أوروبا. ثم ان هذا الجرح النازف في قلب أوروبا سيحد من تطلعاتها وقدرتها على ان يكون لها دور منافس ومستقل عن الادارة الأمريكية، لذا كانت أمريكا دائما ما تعلن ان هذه مشكلة اوروبية.

هذا الأمر شجع الصرب على مواصلة العدوان وتحدى القرارات الدولية خاصة وان التصريحات الأمريكية كانت احيانا متضاربة واحيانا موحية، ففي الوقت الذى يعلن فيه المتحدث باسم الخارجية الأمريكية "إن بلاده ستعارض أى حل سياسى للأزمة يكافىء صرب البوسنة على عدوانهم أو يقسم الدولة إلى مناطق عرقية" (٥٠) كانت إدارة بوش "تطلب من القيادة البوسنية ان تبذل جهدا اخيرا للتوصل إلى تسوية تفاوضية" ولم تكن التسوية التفاوضية سوى تلك التسوية التى طرحها اوين وفانس والقائمة اصلا على تقسيم البوسنة وهذا يتعارض مع ما سبق وان اعلنته امريكا من أنها لن توافق على حل يؤدى إلى تقسيم البوسنة ومكافأة المعتدى. كذلك وجه بوش "تحذيرا للصرب اذا حاولوا توسيع نطاق الحرب ومدها إلى اقليم كوسوفو" (٥١) الأمر الذى فسره البعض بأنه يشكل تغيرا فى الموقف الأمريكى فى اتجاه اكثر حسما. إلا أن لهذا التحذير الجيد وجها آخر فهمه وادركه الصرب جيدا وتصرفوا على اساسه، وهو أنه لا مانع من توسيع نطاق الحرب فى البوسنة .

مع قدوم الادارة الجديدة والتى كانت قد وجهت انتقادات حادة إلى ادارة بوش بشأن تعاملها مع الأزمة مؤكدة انها سوف يكون لها نهج آخر اكثر حسما، حيث اعلم اسبن وزير دفاع كلينتون "انه اذا لم يفعل العالم شيئا تجاه ما يحدث فى البوسنة فإن ذلك قد يغرى بتكرار هذه الاحداث فى مناطق أخرى كالاتحاد السوفيتي سابقا واضاف ان المصلحة الأمريكية مهددة بالخطر فى البوسنة اكثر من التهديدات التى تتعرض لها فى الصومال" (٥٢).

توقع العالم اتخاذ خطوات عملية جادة فى اتجاه وقف المأساة فى البوسنة إلا أن الرئيس كلينتون "أوضح بجلاء ان

ارسال قوات امريكية برية إلـى منطقـة البلقـان امـر مسـتبعد وان كان اكد استعداده لاتخاذ اجراءات صارمة ضد مرتكبى عمليـات التطـهير العرقى" (٥٣) ثم عاد واعلـن "ان بـلاده لـن تقـوم بعمـل عسكرى منفرد لوقف عمليات التطـهير العرقى" (٥٤).

هذا بالرغم من تصاعد اصوات كثيرة داخل الكونجـرس والادارة الأمريكيـة مطالبـة بـالتدخل العسـكرى وضـرب مواقـع الصرب ورفع الحظر عن السلاح إلى البوسنة، فهـنرى كيسـنجر "يؤكد أنه إذا كان للتسوية ان تكون عادلـة فيجب فرضـها بـالقوة ووصـف اعتقاد كريستوفر بأن المفاوضـات يمكـن ان تـؤدى إلـى تسوية ترضى جميع الاطـراف بأنه وهم" (٥٥) كذلك بريجنسـكى أوضح أنه لا يؤمن بجدوى الجهود الدبلوماسية.

وقـد تقـدم عـدد مـن أعضـاء الكونجـرس الأمريكـى مـن الحزب الجمهورى بمشروع قرار ينهى الحظـر المفـروض علـى السلاح فى البوسنة ومنح مساعدات عسكرية قيمتها ٢٠٠ مليـون دولار، وتعالت اصوات بعض اليهود مطالبة ايضـا بالتدخل لوقف عمليات التطـهير العرقى باعتبار أنهم يدركون مرارة وبشاعة هذه التجربة التى مروا بها ايضـا علـى ايدى اوروبية ايضـا.

ومع اختفاء المصالح الأمريكية المباشـرة فـى يوغسـلافيا ورغبة امريكا فى استنزاف أوروبا ودفع التغييرات داخل روسـيا إلى نهايتها التى ترجوها امريكا، تراجـع الخيـار العسـكرى الـذى لوحت به أمريكا كثـيرا وساعد علـى ذلـك أيضـا الخـلاف داخـل إدارة كلينتـون بيـن اسبن ورئيس مجلس الامـن القومـى الذيــن يحبذان العمـل العسـكرى، وكريسـتوفر وكوليـن بـاول الذيـن يرفضان ذلك.

من هنا بدأ مسلسل التراجع الامريكى واصبح التفـاوض هو الحل الوحيد فى نظر الجميع وهو تفاوض سيتم علـى أسـاس

خطة التقسيم التى سبق وأعلنت امريكا انها لن تصادق عليها ولكن تم تعيين مبعوث أمريكي جديد مع الوسيطين الدوليين" وعندما سأل صحفى كلينتون عن عدم تدخله لضرب الصرب عسكريا كان رده هو عندما تسلمت السلطة كانت المسألة قد بلغت مرحلة خطيرة ثم لا يوجد فى العالم رئيس يمكن ان يزج بجيش بلاده فى حرب لا تؤثر على مصالح بلاده مباشرة" (٥٦).

هذا التراجع الأمريكي والتذبذب دفع بعض المسئولين الأمريكيين إلى الاستقالة وكان آخرهم جورج كينى المسئول عن قسم يوغسلافيا فى الخارجية الأمريكية لشعوره بالاشمئزاز من سياسة بلاده السلبية تجاه الحرب المشتعلة فى البوسنة – على حد قوله – ويرى كينى أن سياسة كلينتون أسوأ من سياسه سلفه بوش (٥٧) وكان قد سبق ذلك "تمرد الدبلوماسيين الـ ١٢" الذين انتقدوا فى مذكرة رفعوها لوزير خارجيتهم سياسة المفاوضات الفاشلة فى انهاء عملية الابادة والتطهير العرقى.

ولنا أن نتساءل ما هو السبب وراء هذا التذبذب والتراجع داخل الموقف الامريكي هل هو ضعف فى الرؤية الامريكية وفى ادارتها ؟ أم هو أمر محسوب ؟ ولماذا تعلن ان المشكلة اوروبية ثم تصر فى نفس الوقت ان يحظى أى حل برضائها ؟ وهو أمر وصفه البعض بالتناقض أو تقسيم ادوار خاصة بعد ان وافقت على الخطة . ولماذا تبدو امريكا مدافعة عن البوسنة بدرجة ما وعن كوسوفو بدرجة اعلى وأوضح ؟

أن الولايات المتحدة وبعد انتهاء الحرب الباردة وتراجع الصراعات الايديولوجية التى سمحت لها بالتواجد العسكرى فى أوروبا لم تعد ترى فى أى خطر يهدد أوروبا خطرا يهددها ايضا، بل اصبح من الممكن اعتبار بعض المشاكل والاخطار

داخل أوروبا ورقة ضغط يمكن الاستفادة منها واستثمارها لصالحها. فإختفاء الصراع الايديولوجي الذي جعل أوروبا حليفا سياسيا وعسكريا لامريكا بلا قيد أو شرط سيجعل أوروبا تتحول إلى منافس اقتصادي وربما سياسي للولايات المتحدة خاصة بعد توحدها وزوال الخطر الروسي. وهنا كان لابد وان تتغير الاستراتيجية الامريكية القديمة التي كانت تعزف على وتر الايديولوجيا إلى العزف على وتر جديد وهو وتر الاقليات لتصبح هذه الاقليات - اضافة إلى حقوق الإنسان وفقا للمنظور الأمريكي - حصان طروادة الذي يخترق به الامريكان البلاد الاخرى لتحقيق مصالحهم. ولان الصراع القومي والعرقي تفجر في أوروبا فكان لابد من استخدامه والاستفاده به. وعليه فإن اهتمام أمريكا بالأقليات الإسلامية في أوروبا خاصة الالبانية هو بمثابة اختيار لهذه الاستراتيجية ولهذا كان اهتمام امريكا منذ فترة بالبانيا وكوسوفو وكان حرص امريكا على ان يحظى اى حل برضاها ليس حبا في البوسنة والبوسنيين المسلمين - المحرومين من ابسط حقوق الإنسان وهو حق الحياة والدفاع عن النفس - ولكن لاستكمال وتحقيق الاستراتيجية الأمريكية الجديدة الرامية إلى خلق اصوليات متعددة لا أصولية واحدة في هذا المكان أو غيره من الأماكن بحيث يتم استنزاف هذه المناطق في صارعات تتيح لامريكا التواجد في تلك المنطقة وفرض هيمنتها والانفراد بقيادة العالم والتحكم في مسارات الأحداث وتوظيفها في حالة وقوعها.

الفصل السابع

أطراف دولية غير فاعلة

ونعنى بها هنا الدول الإسلامية والعربية ومنظمة المؤتمر الإسلامى إضافة إلى منظمة الأمم المتحدة.

الدول الإسلامية

انحسر موقف وقدرة الدول الإسلامية والعربية على التنديد الدائم بالعدوان الصربى على البوسنة ومناشدة الأطراف الدولية الفاعلة بذل جهودها لوقف هذه المأساة، واستخدام وسائلها الفعالة فى ذلك حرصا على الشرعية الدولية واحتراما لمواثيق الأمم المتحدة التى اعترفت بالبوسنة كدولة مستقلة.

عقدت هذه المنظمة مؤتمرا فى جدة حضره لورد اوين وفانس حيث مارسا ضغطهما ونجحا إلى حد ما فى تخفيف صيغة البيان الصادر. ثم حضر الرئيس البوسنى مؤتمر المنظمة فى داكار والتى سبق لها ان حددت فى وقت سابق "ان ١٥ يناير ١٩٩٣ هو الموعد الاقصى للتشاور مع الاعضاء الدائمين لمجلس الأمن، واذا لم يتم اتفاق ما فان أعضاء المنظمة سيعتبرون أنفسهم فى حل من قرا مجلس الأمن حول يوغسلافيا (٥٨) وتحركت مجموعة الاتصال المنبثقة عن المؤتمر وهى مصر وتركيا والسعودية وباكستان وايران " وطالبت فرنسا بتحمل مسئوليتها لتأمين تطبيق قرارات مجلس الأمن والحفاظ على هيبة الأمم المتحدة (٥٩) وبالطبع ١٥ يناير وغيره يحدث أن احلت هذ الدول نفسها من الالتزام بهذا القرار، وهو أمر من الصعب تحقيقه طالما لم يأتى الضوء الأخضر من القوى الدولية الفاعلة وخاصة أمريكا كما أنه يظهر مدى محدودية الدور والفاعلية التى يمكن ان تمارسها هذه الدول العالمثالث التى لا تملك إلا أن تتحرك وفقا للشرعية الدولية كما يحددها ويراها المدعو بالنظام العالمى الجديد ، وهى امور محكومة بمصلحة

القوى الدولية الفاعلة ومن الصعب بل من المستحيل ان يحدث موقف مشابة لما حدث اثناء حرب الخليج الثانية وهو ما كانت تأمل فيه هذه الدول خاصة بعد أن وافقت على الموقف الأمريكى فى تلك الحرب.

ولان تركيا هى الدولة الوحيدة الموجودة ضمن دول البلقان وتنتمى لمنظمة المؤتمر افسلامى وحلف الأطلنطى أيضا فقد حاولت ان تلعب دورا وسيطا فى حل هذه الأزمة خاصة وانها دولة اوروبية لها علاقات مع الجميع وترغب فى الأنضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة اضافة إلى مصالحها الخاصة لذلك فقد دعت إلى التدخل العسكرى لردع الصرب بعد أن لاحظت أن الغرب لن يفعل واشترطت ان يكون فى اطار منظمة المؤتمر الإسلامى اذا لزم الامر وان يتم فى اطار الشرعية الدولية وموافقة المجتمع الدولى وهو أمر تعرف تركيا جيدا انه لن يتم لكن لا مانع من ابراء الذمة خاصة وان تركيا حريصة على ارضاء الطرف الإسلامى والطرف الغربى الذى تسعى جاهدة للانضمام إلى سوقه المشترك.

فى ظل هذه الظروف والأمكانات والمواقف استطاع وزراء خارجية ١٦ دولة من منظمة المؤتمر الإسلامى ان يتوصلوا فى إسلام اباد "إلى اتفاق يقضى بإرسال ٧٦٠٠ جندى للمساهمة فى حماية المناطق الآمنة (٦٠). وقبل انتهاء الاجتماعات كانت الدول الاعضاء قد قررت ارسال ١٨ الف جندى لنفس الغرض وذكرت المصادر ان ايران عرضت ارسال ١٠ الآف جندى" (٦١) إلا أن "مسئول امريكى اعلن معارضة بلاده لإرسال قوات ايرانية إلى البوسنة لان ذلك ربما يثير مشاكل كبيرة، كما قابلت الأمم المتحدة عرض منظمة المؤتمر الإسلامى لارسال قوات بفتور" (٦٢).

وهكذا تم إجهاض أول فكرة عملية تطرحها منظمة المؤتمر الإسلامى بالرغم من ان الأمم المتحدة كانت تشكو من عدم توافر قوات لتنفيذ قراراتها الخاصة بحماية المناطق الآمنة، وهي المناطق التي سبق للبعض من البوسنيون رفضها باعتبارها بداية لخلق جيتو إسلامى. أو حصر المسلمين فى اماكن يمكن فيما بعد الضغط عليهم اكثر أو ترحيلهم تحت اشراف الأمم المتحدة وبذلك يتحقق نفس الهدف الذى يسعى اليه الصرب. وهو ما حدث فعلا فيما بعد فى مدينة سربينتشا.

الأمم المتحدة :

لا يتصور عاقل أن يكون موقف الأمم المتحدة مخالفا أو معاكسا لرغبات القوى الدولية الفاعلة. ولأن الموقف الغربى متضاربا ومترددا فى الظاهر، ومحددا هدفه النهائى فى الباطن فقد انعكس هذا الموقف على القرارات التى كانت تصدر من الأمم المتحدة وهى قرارات كثيرة، مضمونها إدانة الموقف الصربى وفرض عقوبات اقتصادية إلا انها لم تكن ذات جدوى والعديد منها لم يوضع موضع التنفيذ، وان تم تنفيذ بعضها فقد كان تنفيذها محدودا لوجود اطراف دولية ساهمت فى اختراق هذا الحظر. ولم ينفذ الحظر الفعلى إلا على البوسنة .

فعلى سبيل المثال تم اصدار قرار بفرض الحظر على طيران الصرب فوق البوسنة وتم اختراق هذا الحظر وفق اعتراف مسئولين دوليين فى البوسنة مئات المرات دون أى رد فعل حقيقى لوضع قرار الحظر موضع التنفيذ. ولان الطرف الغربى الفاعل كان يرفض استخدام القوة ومنقسما على نفسه فقد انعكس ذلك ايضا على امين المنظمة الدولية واعلن رفضه لاستخدام القوة لانهاء حرب الابادة التى يتعرض لها شعب

البوسنة التى اعترف العالم باستقلال دولته من خلال الامم المتحدة ذاتها، ثم عاد واعلن موافقته على استخدام قوات الأمم المتحدة للقوة لحل الأزمة واقرار التسوية السلمية" (٦٣) تم تراجع مرة أخرى وعارض فكرة التدخل أو رفع الحظر عن السلاح الأمر الذى وضعه فى مواضع الشبهات لدى البعض. فهل كان الوصول إلى حقيقة ان القوة وحدها هى الكفيلة بوقف هذه المأساة تحتاج إلى كل هذا الوقت ؟ أم أن الأمر تقسيم ادوار ؟ !.

ونتيجة لكل هذه التناقضات تعرضت الامم المتحدة وامينها لهجوم حاد وعنيف من قبل البعض، وخاصة فى الأوروبية ولصحافة العربية. فقد انتقد النائب الديمقراطى "هوبنز" جهود الأمم المتحدة ووصفها بانها زائفة وغير فعالة وكذلك النائب "ديكونسيتى" انتقد بطرس غالى بسبب تأييده تأجيل تنفيذ اعلان جمهورية البوسنة منطقة حظر على الطيران الصربى ووصف مفاوضات جنيف بانها بغيضة لاننا طالبنا بجلوس ضحايا جرائم الحرب على نفس المائدة مع مرتكبى هذه الجرائم (٦٤).

واعتبر البعض ان بطرس غالى يمارس "بجدارة سياسة قذف الكرة إلى اعلى حتى لا تسقط على الارض" (٦٥) فبعد ان كان يعارض فكرة استخدام القوة عاد وأيدها، فى نفس الوقت الذى اعترضت امريكا على هذه الفكرة بالرغم من انها هى الداعية اليها اصلا. وهو أمر اعتبره البعض مجرد تقسيم ادوار مقصود منه الوصول بالازمة إلى محطة معينة كذلك شنت "جين كيرك باتريك" هجوما حادا على بطرس غالى الامر الذى تم تفسيره بأنه محاولة منها لتغطية الانقسام الواضح داخل حلف

الاطلنطي مـن جهـة وبين الحلـف والولايـات المتحـدة من جهـة أخرى (٦٦).

وبالرغم من ان الهجوم الاوربى الامريكي علـى بطـرس غـالى هـو محاولـة منهـا لتـبرير واخفـاء مواقفهـا المـترددة أو المحسوبة لانها تعلم اكثرر من غيرها ان بطرس غـالى لا يملـك الا تنفيذ القرارات التى تسعى هذه الـدول إلـى تنفيذهـا ومـع ذلـك فنحن لا نستطيع ان نغفل ان د. بطرس غالى قـد جانبـه التوفيـق كثيرا فى بعض التصريحات التي اعلنها وهى تصـريحات جعلـت الاطـراف العربيـة والاسـلامية تتهمـه بـالتحيز إلـى الصـرب الارثوزكس، فقد اعتـبر بطـرس غـالى ان مفهـوم حـق التدخـل العسكرى فى البوسنة يتعارض مـع شـرعية الأمـم المتحـدة التـى تنـص بـالتحديد علـى عـدم التدخـل فـى الشـئون الداخليـة للـدول (١٢/٢٠) وهـو فـى هـذا التصريـح جانبـه الصـواب لانـه اعتـبر الحرب الدائرة فى البوسنة حربا اهليـة داخليـة ليس فيهـا طـرف خـارجى معتـد وهـو امـر مخـالف للحقيقـة حيـث اعـترفت الأمـم المتحدة بدولة البوسـنة وبالتـالى يصبـح تدخـل الجيـش الاتحـادى لدعم صرب البوسنة الانفصاليون هو عدوان علـى دولـة مسـتقلة معـترف بهـا دوليـا ينطبـق عليهـا مـا تـم تطبيقـه علـى الكويـت والعراق ثم انـه ايـد ووافـق علـى التدخـل العسكرى الدولـى فـى الصومال بالرغم من أن الصومال بالفعل هى التى ينطبـق عليهـا مسالة الصراع الداخلي والحرب الاهلية اكثر من غيرها.

هذا يؤكد ان امين الأمم المتحدة لـم يكـن إلا مجـرد منفـذ لرغبات القوى الدولية ولا يستطيع ان يكون إلا كذلك طالمـا انـه راغب فى البقاء فى هذا المنصب، علما بأنـه كـان قـد طلـب مـن حلـف الاطلسـى وضـع خطـط لثـلاث عمليـات عسـكرية تحسـبا لاحتمـال التدخـل العسـكرى علـى ان تشـمل هـذه الخطـط فـرض

منطقة آمنة جوية محظورة فوق البوسنة، واقامة منطقة معزولة للمدنيين وهى ما عرفت فيما بعد بالمناطق الآمنة وايجاد وسائل لمنع امتداد الحرب إلى كوسوفو وهو الأمر الذى اهتمت به فعلا الولايات المتحدة. لكنه عاد فيما بعد وطالب مجلس الأمن بتأجيل اتخاذ أى اجراء عسكرى ضد طائرات الصرب فوق البوسنة لاتاحة الفرصة لمفاوضات السلام وهى المفاوضات التى بدأت فى ٢ يناير ٩٣ والتى سوف نتتبع مسارها وما وصلت اليه لنرى هل الأمر صدفة أم لا ؟

وإذا كان بطرس غالى قد اشتكى من ان القوى الكبرى لا تعتمد على الأمم المتحدة بصورة كافية واعتبر ان المشكلة تكمن فى ذلك فهو هنا قد تجاهل حقيقة هامة وهى ان الدول الكبرى التى انشأت هذا الكيان من البداية انما انشأته ليكون غطاءا لما تريد هى، وانها عندما تريد ان تتجاهل الأمم المتحدة طالما ان ذلك يحقق مصالحها فسوف تفعل. واذا ارادت ان تستخدم الامم المتحدة لاخفاء ترددها أو نأمرها فسوف تفعل ايضا وهو ما تم بالفعل فالمشكلة "ليست فى ان القوى الكبرى لا تعتمد على الأمم المتحدة بصورة كافية بل فى انها تعتمد عليها لخدمة ترددها بالدرجة الاولى، فالأمم المتحدة لا تستطيع ان تقوم الا بما تريده منها الدول الاعضاء القيام به" (٦٧) لذلك تحولت الأمم المتحدة إلى وعاء فارغ تملأوه أمريكا بما تريد.

وهكذا أدى تردد الأسرة الدولية وتضارب مصالحها وتصريحاتها إزاء أزمة البوسنة إلى تشجيع الصرب على مواصلة اعمالهم الوحشية والاستيلاء على المزيد من الأراضى، وممارسة أكبر وأوسع وأفظع حرب إبادة وتطهير عرقى فى تاريخ أوروبا. ومن تتبعنا لمسار الاحداث نكتشف حقيقة المواقف

والاهداف ونعرف الهدف من وراء هذا التردد والتخبط أو التخاذل والتواطؤ.

الفصل الثامن

البوسنة والمجتمع الدولى

إذا كانت الجماعة الأوروبية بتدخلها السياسى (وفد الترويكا الأول واتفاق بريونى للسلام) وضغوطعها الاقتصادية بفرض عقوبات اقتصادية ضد يوغسلافيا. ثم الاستعانة بجهود الولايات المتحدة ومجلس الأمن لتعزيز الحظر على تصدير السلاح وفرض حظر على تصدير النفط ليوغسلافيا، قد نجحت فى وقف التدهور واحتواء النزاع العسكرى بين صربيا وسلوفينيا وكرواتيا فإن الأمر بالنسبة للبوسنة كان مختلفا تماما. فقد وجدت سلوفينيا وكروايتا سندا قويا كالمانيا يقف ورائهما ويشد أزرهما ويمدهما بالسلاح ويدفع أوروبا والمجتمع الدولى إلى الأعتراف باستقلالهما عن الاتحاد اليوغسلافى، أما البوسنة فليس لها هذا السند ولا تجد دولة أوروبية تقف ورائها وليس لها "دولة أم" تمدها بالسلاح والدعم كما هو الحال بالنسبة لصربيا أو سلوفينيا وكرواتيا كما وأنها ليست لها أية منافذ يمكن من خلالها تقديم العون المحدود، ولأنه ليست هناك مصالح ذات قيمة فى البوسنة اللهم إلا منع توسيع نطاق الحرب. فقد أطلقت يد الصرب فى البوسنة كما أطلقت يد الكروات وأنصب الاهتمام الدولى فى عدم إتساع نطاق الحرب إلى باقى الجمهوريات - مقدونيا - وإقليم كلوسوفو وانتظار النتائج التى ستتمخض عنها الحرب والتدخل الدبلوماسى للسير بها فى الاتجاه المرغوب اذا انحرف المسار وتضاربت المصالح الوقتية فقد باختصار خان المجتمع الدولى البوسنة ولم تكن هذه هى المرة الأولى والأرجح أنها لن تكون الأخيرة التى يحدث فيها ذلك.

مسار الأحداث :

بدأت مفاوضات السلام فى ٢ يناير فى جنيف تحت اشراف اللورد اوين ممثلا للجانب الاوروبى وسايروس فانس

ممثلا للأمم المتحدة وتم طرح خطة سلام تقضى بأن تصبح دولة البوسنة دولة غير مركزية، وأن يتم تقسيمها إلى ١٠ مناطق ذات حكم ذاتى واستمرت المفاوضات حول هذه الخطة فترة طويلة بين الأطراف، أعلن بعدها الوسيطان فشل المفاوضات. إلا أن صرب البوسنة اعلنوا فجأة قبولهم لمشروع التسوية على ان يتم التصديق النهائى عليها من قبل البرلمان ومع أنها مناورة مكشوفة من الصرب لكسب الوقت فقد وافقت المجموعة الأوروبية على هذا ومنحتهم مهلة ٦ ايام وهو أمر اعتبره البرلمان البوسنى اعترافا عمليا بدولة الصرب المتمردة فى البوسنة وهو محق تماما فى هذا التقدير.

من الناحية الفعلية تعتبر هذه الخطة التى تقسم البوسنة على أسس عرقية متعارضة مع تصريحات أوروبا وامريكا والأمم المتحدة التى كانت تؤكد دائما على وحدة الدولة البوسنية، وقد ترتب على هذه الخطة بدء اول صراع عسكرى مسلح بين الكروات والبوسنيين فى محاولة من كرواتيا لتعزيز مواقفها العسكرية فى المناطق التى حددتها الخطة وبذلك انهار التحالف الهش بين الكروات والمسلمين وهو تحالف وقتى وانتهازى كان الكروات قد عقدوه بغرض الحد من المشروع الصربى التوسعى فى البوسنة وتعزيز موقف الكروات داخل البوسنة وكذلك تحقيق مكاسب اقتصادية من بيع السلاح للبوسنة اضافة إلى استيلاء الكروات على بعض السلاح الذاهب إليها من اراضيها وكسب التعاطف الدولى من قبل الاطراف الإسلامية والعربية. ونتيجة لهذا التحالف اصبحت كرواتيا ملاذا للمسلمين النازحين والهاربين من الجحيم الصرب الأمر الذى مكن الكروات فيما بعد من استخدام هؤلاء المهاجرين كورقة ضغط على البوسنة فيما بعد.

أما النتيجة العملية التى ترتبت على هذه الخطة فهى انها اكدت بقاء وقبول الأمر الواقع المفروض بقوة السلاح. وعليه تحرك الكروات واستكملوا حصار المسلمين فى محاولة منهم لتحقيق مكاسب على ارض الواقع تكون بمثابة امر جديد فى المفاوضات التالية وتحركت القضية إلى نيويورك وسط مخاوف من عدم تأييد امريكا للخطة حيث وصفتها بأنها غير عادلة بالنسبة لمسلمى البوسنة. وطرحت خطة بديلة رفضتها روسيا واقترحت التعاون مع أمريكا فى إطار مشروع فانس - اوين الذى رأى فيه الوفد البوسنى تصديقا على الأمر الواقع ولا يمنح أى ضمانات بفرض شرعية الدولة ولا يعطى الحكومة البوسنية اية سلطات. كما لم تشدد وثيقة فانس - اوين على ضرورة منع قيام أى شكل من اشكال الوحدة بين اقليمين أو اكثر حتى لا يكون ذلك تمهيدا للانفصال فيما بعد أو قيام دولة داخل الدولة (٦٨).

كان اقصى التحركات الدولية فى هذا الوقت هى القاء المعونات الطبية والغذائية فوق المناطق التى يحاصرها الصرب، بعد ان منع الصرب دخول قوافل الإغاثة إليها وهو أمر لم يكن ذا جدوى وفاعلية بل وصل بعضه إلى أيدى الصرب انفسهم كما قال البعض. ولم تكن هذه العملية المسرحية إلا مجرد حركة تثبت ان الطرف الدولى يتحرك لانقاذ البوسنة فى محاولة لتقليل السخط العام، كما قرر مجلس الأمن تشديد العقوبات على الصرب بأغلبية ١٣ صوتا وامتناع روسيا والصين" وشهد القرار صراعا عنيفا بين مجموعة عدم الانحياز من جانب وأمريكا وروسيا من جانب آخر، بسبب الاتجاه داخل المجلس لتأجيل إصدار القرار. كذلك طالبت مجموعة عدم الانحياز بتقديم كافة المساعدات اللازمة لتمكين مسلمى البوسنة من الدفاع عن

أنفسهم، "كما طالبت مصر باستخدام الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة لمواجهة اعتداء القوات الصربية وعدم التعلل بالتخوف على أمن وسلامة قوات الأمم المتحدة (٦٩).

وبالرغم من تدهور الاوضاع بشكل اعنف داخل البوسنة اجل مجلس الأمن التصويت على تشديد العقوبة على الصرب إلى ما بعد الاستفتاء الروسى فى ٤/٢٥ الأمر الذى شجع الصرب على تكثيف هجماتهم على مدينة شربيننتشا. وما أن اصبحت المدينة على وشك السقوط بعد ان استمر الحصار والقصف الصربى عليها مدة تقرب من عام ـ!! أعلن مجلس الأمن أن مدينة سربيننتشا منطقة آمنة تحت حماية القوات الدولية، ويذلك أشرفت القوات الدولية على استسلام المدينة وقد إعتبر قرار مجلس الأمن رقم ٨١٩ (٩٣/٤/١٦) والقرار رقم ٨٢٤ (٥/٦) المناطق التالية اضافة إلى سربيننتشا مناطق أمنة : تخضع لحماية الأمم المتحدة وهى :

١- العاصمة سراييفو ٣٨٠ ألف نسمة.

٢- توزلا ١٣٠ ألف نسمة وبها نسبة كبيرة من اللاجئين وهى مركز صناعى كبير.

٣- جورازدى ٦٠ ألف نسمة وهى المدينة الوحيدة على نهر درينا خاضعة لسيطرة الصرب ولها أهمية استراتيجية **بالنسبة لهم مكلف بحمايتها ١٩٦ جندى بريطانى، ١٠** جنود نرويجين، ٧٦ اوكرانيا.

٤- بيهاتش ١٥٠ ألف نسمة ولها أهمية كبيرة بالنسبة للبوسنة. مكلف بحمايتها ٢٨٠ جندى من بنجلاديش.

٥- زيبا ١٢ ألف نسمة والملاحظ ان أعداد القوات الدولية المكلفة بحماية هذه المناطق هي أعداد هزيله لا تكفي للقيام بما تم تكليفها بها ولا حماية نفسها.

وقد كشفت صحيفة الايكونوميست فيما بعد مغزى اللعب بالألفاظ لدى دول الغرب مقارنة بقرار مشابه قائله لو أن نص القرار اعتبر المدن البوسنية ملجأ أمنا Haven مثلما حدث مع الأكراد في العراق لكان ذلك معناه تدخل الغرب لضمان حماية السكان، لكن اعتبار المدن البوسنية مناطق أمنة area في نص القرار يعفيهم من ذلك الألتزام (٧٠).

في ظل هذه الأوضاع طالب زعيم صرب البوسنة بتنازلات جديدة، أهمها إقامة ممر يربط بين جمهورية الصرب ومناطق صرب البوسنة. وقد لبى اللورد اوين طلبه الا ان زعيم صرب البوسنة عاد ورفض هذه التنازلات ووصفها بأنها غير مقبولة.

وفقا لهذا الاداء. يصبح سقوط مدينة سربينتشا هو النتاج الطبيعي لأداء المجموعة الأوروبية وامريكا وخطة اوين - فانس التي كافأت الصرب وسمحت لهم بأن يجنوا ثمار عدوانهم، بعد ان ظلت مأساة البوسنة تنتقل من مدينة إلى اخرى حتى وصلت إلى اثينا حيث وقع رادوفان كارادزيتش زعيم صرب البوسنة للمرة الاولى على خطة السلام الدولية تفاديا وإرجاءا لأى عمل عسكري يمكن ان يقوم به الغرب، واستغلالا لسماحة الغرب وسعة صدره تجاه الصرب. ولكن برلمان الصرب رفض خطة السلام التي تم توقيعها وعادت المشكلة مرة أخرى إلى مجلس الأمن بعد ان دعى البرلمان الصربي إلى عرض الخطة في استفتاء عام في منصف ١٥ مايو وهكذا واصل الصرب مناوراتهم وواصل المجتمع الدولي الاستجابة لتلك المناورات

مؤكدا بذلك عجزه - أو اصراره - فى عدم اتخاذ أى اجراءات فعلية لوقف العدوان الصربى واكتفى "المجلس باصدار بيان موجز يؤكد فيه ان خطة فانس - اوين هى اساس التسوية السلمية" (٧١).

بعد ان تفجر خلاف بين اعضاء مجلس الأمن حول اسلوب واطار معالجة ازمة البوسنة اصدر وزراء خارجية الولايات المتحدة وروسيا وبريطانيا واسبانيا وفرنسا بيانا مشتركا لتبنى استراتيجية جديدة لحل الأزمة (٧٢) لم تتحدث - أى الاستراتيجية - عن انسحاب قوات الصرب وانما تحدثت عن المناطق الآمنة والتى لا يسمح لمسلمى البوسنة بالخروج منها !! وقد وصفتها مصر بأنها "ستكرس الوضع القائم الذى يسيطر عليه الصرب وانها دون مستوى مواجهة المشكلة ولم يرد فيها استخدام القوة العسكرية واكتفت هذه الخطة بالاشارة إلى المساعدات الإنسانية ومنع امتداد الحرب إلى مقدونيا وكوسوفو" (٧٣).

وفى إطار التحرك الدولى المحسوب وافق مجلس الأمن على تشكيل محكمة دولية لمجرمى الحرب فى يوغسلافيا وهو أمر قوبل بالترحيب والتحفظ معا. فمحاكمة مجرمى الحرب لا يمكن ان تتم دون إلقاء القبض عليهم، وهو أمر لن يتم دون تدخل عسكرى دولى ، والتدخل العسكرى لن يتم على الاطلاق طالما بقى هذا التردد والتخبط. ويبدو ان قرار تشكيل المحكمة لم يكن الا بغرض الضغط النفسى على القيادات الصربية وإرضاء الرأى العام المتألم من أحداث البوسنة والناقم على مواقف حكوماته. بدليل ان الاطراف الدولية كانت تضغط على المفاوض البوسنى بمواصلة التفاوض مع نفس مجرمى الحرب الصربيين

فى العواصم الأوروبية التى تستضيفهم لمواصلة التفاوض وتستجيب لمطالبهم.

أما الاستراتيجية التى اقرتها الدول الخمس فقد وصفها عزت بيجوفيتش بأنها لا تفى بالحد الادنى لسلام عادل وتكافيء المعتدى بل وتؤيد سياسة التطهير العرقى (٧٤) بينما أبدى د. بطرس غالى تشككه فى جدواها وتشككه كذلك فى موقف بعض الاطراف التى لا تجد لها مصلحة فى التعاون وتعلن صراحة انه ليس من الوارد التخلى عن شبر واحد طهرته – طائفتنا –" (٧٥).

فى ظل هذا المناخ واصل الصرب تحديهم للمجتمع الدولى "وهدد زعيم الصرب فى البوسنة بأن قواته ستنتزع سراييفو سلما أو حربا وطالب المسلمين بالتخلى عن فكرة دولة بوسنية موحدة وأكد أنه مستعد للتفاوض لكن دون أن يستغنى إطلاقا عن سراييفو" (٧٦).

وفى محاولة لاسترضاء الصرب وقبولا بسياسة الأمر الواقع التى يدعو اللورد اوين البوسنيين إلى قبولها. تم طرح خطة جديدة تقوم على تقسيم البوسنة إلى ثلاث دويلات واعلن كلينتون "ان بلاده مستعدة لبحث قبول هذا التقسيم تنفيذا لمطالب الصرب والكروات واعترف انه كان يفضل دولة واحدة متعددة الاصول العرقية، وان التقسيم هو مكافأة للمعتدى. والقى بمسئولية ذلك على الأمم المتحدة التى فرضت حظر السلاح على المسلمين بينما الصرب والكروات ينالون ما يحتاجون (٧٧) "ثم عادت واشنطن وأكدت رفضها لأى تقسيم للبوسنة وفرض أى حل سياسى بالقوة (٧٨).

فى نفس الوقت شدد الكروات من هجومهم على مدينة موستار البوسنة الاستراتيجية بالنسبة لهم مما أدى "إلى سحب

الأمم المتحدة لقواتها من المدينة بسبب التهديدات التي تتعرض لها من القوات الكرواتية" (٧٩).

لقد تكشف الدور الكرواتي الحقيقي والذي لا تقل خطورته على البوسنة عن الدور الصربي وتم فض التحالف بين الكروات والمسلمين وبدأت القوى السياسية الكرواتية المعارضة لسياسة الرئيس تودجمان تنتقد موقف الرئيس الكرواتي واعتبرت اتفاق رئيس كرواتيا والصرب على تقسيم البوسنة هو اكثر لحظات التاريخ السياسي المعاصر لكرواتيا مأساوية. وحمل كاردينال الكنيسة الكاثوليكية في كرواتيا الرئيس تودجمان مسئولية تفجير القتال بين الكروات والمسلمين (٨٠) ووصف ذلك بأنه جريمة بشعة.

وقد تزامن مع هذا كله بداية الخلافات داخل مجلس الرئاسة البوسني في محاولة قادها فكرت عبديتش مدعوما من الكروات والصرب معا بهدف عزل عزت بيجوفيتش، وكانت تلك محاولة للضغط عليه بهدف القبول بتقسيم البوسنة إلى ثلاث ويلات وفقا للمقترحات الصربية - الكرواتية. وعند هذا الحد علن زعيم البوسنة انه سيقبل تحويل البوسنة إلى كونفدرالية مقسمة على اساس عرقي في حالة عدم وجود بديل بينما رفض مجلس الرئاسة ذلك ثم عاد ووافق على تقسيم البلاد اقتصاديا وليس عرقيا (٨١).

وسط هذه اللامبالاة الدولية صعد الصرب من هجومهم على سراييفو واكتفى مجلس الأمن بمطالبة قوات الصرب بوقف هجماتها، ومناشدة جميع الاطراف لحضور محادثات السلام في جنيف. وازاء تصعيد الهجوم والحصار على سراييفو "اعرب المتحدث باسم الخارجية الأمريكية عن قلق بلاده البالغ لما يحدث في سراييفو مع نفيه لاحتمالات التدخل العسكري للحيلولة دون

سقوط المدينة مؤكدا امكانية اللجوء للضربات الجوية فى حالة تعرض قوات حفظ السلام الدولية للهجوم فقط وليس المدنيين" (٨٢).

فى جنيف بدأت المفاوضات حول خطة التقسيم والمشروع الدستورى المقترح الذى يقضى باقامة ٣ جمهوريات على اساس عرقى يجمع بينهم ما يسمى بالجمهوريات المتحدة البوسنية. فيما "اعلن المتحدث باسم الخارجية الامريكية ان بلاده مستعدة للقيام بعمل عسكرى منفرد لوقف عمليات القتال بالبوسنة وانه من المحتمل ان تتم الهجمات على مواقع القوات الصربية خلال ايام قليلة وليس اسابيع أو شهور" (٨٣) ولم تدم هذه اللهجة الحادة كثيرا - كالعادة - ولم توضع موضع التنفيذ وسرعان ما عاد البيت الابيض "ليعلن ان امريكا طلبت من حكومة البوسنة استئناف مفاوضات جنيف وهددت بتأجيل الضربات الجوية إذا رفض المسلمون مواصلة المحادثات" (٨٤) كل ذلك فى الوقت الذى كان الصرب يواصلون تحديهم للمجتمع الدولى كله، ويتجاهلون كل هذه التهديدات الصادرة من الاطراف الدولية الفاعلة ويواصلون تقدمهم نحو سراييفو. وقد كشف الناطق باسم الحكومة البوسنية "ان قبول بلاده بمبادىء المستقبل الدستورى التى أعدها الوسيطان الدوليان خطأ جسيم حدث بسبب الضغوط الشديدة على المسلمين" (٨٥) فحقيقة هذه الخطة وهذا الدستور انهما يستجيبان لمطالب ومطامع كل من الصرب والكروات حيث يحق للمواطن الصربى والكرواتى الحصول على الجنسية الصربية والكرواتية بجانب جنسيته فى دولة البوسنة المقترحة فى الاطار الكونفدرالى. وهو أمر يمهد الطريق أمام الصرب والكروات فيما بعد للانضمام إلى صربيا وكرواتيا لتتحقق صربيا وكرواتيا الكبرى على حساب البوسنة. وصرح بيجوفيتش ان

الخيار الآن.. بين الموت أو التقسيم " حيث لم يعد هناك احتمال ان يرفعع الغرب اصبعا واحدا لانقاذ بلادنا من التقسيم" (٨٦).

مع زيادة الضغط الصربى على سرايبفو تم الاتفاق على اخضاع سرايبفو للإدارة الدولية لفترة انتقالية مدتها عامان خاصة حين هدد بيجوفيتش بمقاطعة المباحثات اذا لم تنسحب القوات الصربية من جبل ايجمان" (٨٧) وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى تحركت فيها القوى الدولية بشكل فعال لانقاذ مدينة سرايبفو من السقوط فى ايدى الصرب، لان سقوطها يعنى تحقيق الحلم الصربى وتعطيل بل وانهاء عملية التقسيم الثلاثية التى يتم تنفيذها. وبالتالى ضياع المنطقة التى من الممكن حصر المسلمين فيها خوفا من تشتتهم فى الدول الأوروبية بحيث يصبحوا فلسطينوا أوروبا ويشكلون عبئا جديدا على الدول الغربية. فإذا كانت أوروبا - مصدر الحركات الفاشية والعنصرية - قد نجحت فى التخلص من اليهود فى الماضى بترحيلهم إلى فلسطين حين غضت الطرف عن عمليات التطهير العرقى والابادة مارسها النازى - تماما مثلما تفعل الآن - فإنه فى هذه المرة ليس هناك مكانا يتم ترحيل البوسنيين المسلمين اليه وإنما سيصبحوا لاجئون فى أوروبا وما يترتب على ذلك من عنف أوروبا فى غنى عنه، لذلك كان لابد من بقاء جيب صغير يأويهم بعيدا عنها ولن يخرج أى حل عن ذلك.

وقبيل توجهه إلى جنيف صرح بيجوفيتش "ان المقترحات المطروحة اسوأ من الحرب بينما هدد رادوفان كارادزيتش بتقسيم البوسنة بين الصرب والكروات فقط اذا طالب المسلمون بتعديل حصتهم واضاف ان المسلمين يقامرون بفقدان ما تبقى بين ايديهم حاليا وهو ١٠٪ من الاراضى" (٨٨).

هذا في الوقت الذى "اكدت" فيه خمسة احزاب كرواتية معارضة موقفها الداعم لوحدة اراضي البوسنة وذلك في مواجهة السياسة التقسيمية التي تواصلها حكومة الرئيس تودجمان، والمشجعة لما يسمى (بجمهورية هرسك بوسنة الكرواتية) وترى أحزاب المعارضة ان ذلك لابد وانه تم بالاتفاق مع الصرب مقابل السكوت عن احتلال الصرب لاراضي كرواتية (٨٩) وبرغم تأكيد الرئيس بيجوفيتش ان الضربة الأمريكية من شأنها ان تحل المشكلة البوسنية وانها الحل الوحيد اذا استمر الصرب في عنادهم (٩٠) إلا أن رفض كلينتون طلب بيجوفيتش موضحا انه يفضل الاستمرار في العملية التفاوضية دون اقحام عنصر الضغط (٩١).

واتساقا مع الموقف التركي - السابق ذكره - أيد وزير خارجية تركيا عملية السلام التي تقوم بها الأمم المتحدة ولكنه أكد أن هذه العملية لا يجب أن تعطى فوائد للمعتدى (ولا ندرى كيف ؟!) وان تكون جمهورية البوسنة مستقلة ذات سيادة وتستمر عضوا في الأمم المتحدة وإذا جرى تقسيم البوسنة فان الخطة يجب ان تأخذ في الاعتبار ان المسلمين يشكلون ٤٤٪ * وان يكون لهم وضع ملائم يمكنهم من الحياة والبقاء بدنيا واقتصاديا وان يكون لهم على الاقل منفذ بحرى (٩٢).

---

* النسب المتداولة والشائعة تقول بأن نسبة المسلمين ٤٦٪ والصرب ٣٤٪ والكروات ١٨٪ من تعداد البوسنة وعليه يبقى ٢٪ يمثلون اعراق اخرى. ولكن تعداد البوسنة وفقا لجدول التعداد السابق - وهو اخر احصائيات منشورة - هو ٥,٤٢٩ مليون يمثل تعداد الصرب منهم ١,٢٠٠ مليون وهذا معناه أن نسبتهم ٢٢٪ وليس ٣٤٪ كما هو شائع، ومع ثبا نسبة الكروات (١٨٪) وباقى الاعراق (٢٪) تكون نسبة المسلمين ٥٧٪ وليس ٤٦٪ كما يقال وعموما هذا أحد لوغاريتمات أزمة البوسنة الكثيرة.

ولأول مرة وبعد فوات الأوان وارضاء للضمير "صوت البرلمان الاوروبى لصالح اتخاذ اجراء عسكرى لانهاء الحرب فى البوسنة ودعا الاعضاء إلى فرض تطبيق قرارات الأمم المتحدة" (٩٣) كذلك وعدت امريكا حكومة البوسنة بتنظيم حملة تبرعات دولية لاعمار الجمهورية الإسلامية التى ستتشكل بموجب خطة التقسيم" (٩٤) فى محاولة منها لدفع برلمان البوسنة للموافقة على خطة. التقسيم إلا أن البرلمان رفض هذه الخطة.

وهنا تواصل الضغط على الطرف البوسنى للقبول بالخطة المجحفة الرامية إلى تفتيت الدولة البوسنية بأن رفض برلمان كروات البوسنة تقديم تنازلات اقليمية للمسلمين تسمح لهم بمنفذ على ساحل الادرياتيكى" (٩٥) وسحب الكروات والصرب تنازلاتهم التى قدموها للمسلمين وهى تنازلات عن ارض تم اغتصابها اصلا من البوسنة وبدأوا فى التصعيد السياسى العسكرى. فإلى جانب هجومهم العسكرى - تم دفع عناصر جديدة موالية لهم من بين المسلمين إلى التمرد واعلان الانفصال عن الدولة البوسنية كعامل جديد من عوامل الضغط يهدف إلى انهاء دويلة البوسنة المقترح إنشاؤها وفقا لخطة التقسيم. واعلنت توزلا - بعد بيهاتش - الحكم الذاتى وتحدث "قادروفيتش" عن مؤازرة الصرب والكروات داخل المدينة وخارجها لمؤيدى الحكم الذاتى وان عبديتش وعد بتقديم مساعدات ضخمة والتعاون فى مختلف المجالات" (٩٦) كذلك هدد عبديتش باجراء مفاوضات مع كل من الرئيس الكرواتى والصربى اذا لم يلب بيجوفيتش ونائبه دعوته لاجتماع عاجل" (٩٧) وواصل الاعلام الكرواتى دعمه لعبديتش" ونشرت صحفه رسالة من عبديتش يتهمه فيها بأنه خرق الدستور البوسنى على مدى الاعوام الثلاثة الماضية، وانه - عبديتش - يرفع صوته كرئيس دستورى واخلاقى

ومعنوى للبوسنة والهرسك وانه سيطالب بالحد الأقصى من مساعدة ومشاركة الرئيس الصربي والكرواتى فبدونهما يصعب التوصل إلى سلام" (٩٨) ولكن من هذا الـ "عبديتش "؟

هو رجل اعمال سبق اتهامه بقضايا اختلاس وحكم عليه بالسجن عامين قبل تفتيت يوغسلافيا. كما أنه مطلوب للمحاكمة أمام السلطات النمساوية بتهمة السطو على الأموال والمعونات التي يتم ارسالها دعما للاجئين. اضافة إلى حصوله على أموال من البوسنيين المسلمين بدعوى التدخل لدى الصرب نتيجة لعلاقته الطيبة، بهم وقد اعلن قيام تحالف بين القوات التابعة له والميليشيات الكرواتية والانفصالية ردا منه على قرار استبعاده من الرئاسة البوسنية وبذلك تم فتح جبهة جديدة للقتال بين المسلمين وبعضهم البعض.

ومع إعلان الحكومة البوسنية الجديدة موافقتها على حضور مؤتمر سلام ثانى فى لندن لمناقشة خطة التقسيم الجديدة، أعلنت مصادر دبلوماسية غربية ان المجموعة الغربية قد تعين وسيطا جديدا فى حالة اتخاذ قرار عقد المؤتمر ليحل محل الوسيط لورد اوين" (٩٩) حيث اتهمته القيادة البوسنية بالانحياز إلى الصرب واشترطت اعفاءه من الوساطة كشرط للعودة للمفاوضات. ومع هذه الرغبة البوسنية للعودة إلى المفاضوات بدأ الصرب يطالبون برفع العقوبات الاقتصادية عنهم مقابل العودة إلى المفاوضات. وفى ظل هذا السياق تقدمت المانيا وفرنسا بمبادرة بشأن دفع عملية السلام تضمنت وعدا برفع العقوبات المفروضة على الصرب فى حالة التنازل لمسلمى البوسنة عن مزيد من الاراضى التى احتلها الصرب اصلا من البوسنة. والملاحظ ان هذه المبادرة هى ايضا بمثابة تنازل اوروبى جديد امام الصرب والكروات اضافة إلى انها تدعو لرفع العقوبات عن

الصرب "وقد وافقت المجموعة الأوروبية على هذه المبادرة على ان يتم تعليق بعض العقوبات الاقتصادية بدلا من رفعها وهو تعديل جاء لضمان موافقة امريكا على الخطة" (١٠٠).

كذلك أكد دوجلاس هيرد "انه ليس هناك مجال لرفع العقوبات عن حكومة بلجراد قبل انصياعها لقرارات الأمم المتحدة بشأن البوسنة، واعرب عن تشككه فى امكانية التوصل إلى اتفاق سلام فى وقت قريب. فيما اعلن رئيس وزراء البوسنة تأييده للمبادرة الفرنسية ووصفها بانها المبادرة الوحيدة المتاحة فى الوقت الراهن" (١٠١) كذلك واصل زعيم صرب البوسنة ابتزازه للعالم الغربى "ودعا الأمم المتحدة إلى تأجيل فرض العقوبات على صربيا والجبل الاسود قبل بدء المباحثات لتحقيق المساواة الكاملة من جميع الاطراف، مؤكدا انه اذا تم هذا التأجيل قبل المباحثات فسوف يكون صرب البوسنة على استعداد لاحراز تقدم بشأن مطالب المسلمين" (١٠٢).

اما اللورد اوين فقد كشف عن وجهه الحقيقى بلا موارية فى محاضرته التى القاها بلندن حيث اكد ان قيام دولة اسلامية مستقلة فى البوسنة سيصبح امرا حتميا - لماذا فى نظر اوين - بسبب تخلى واشنطن عن دعم خطته لتقسيم الجمهورية لثلاث دويلات عرقية فى اطار اتحاد هش !! - حسب تعبيره - وعن مستقبل البوسنة اشار إلى وجود خيارين فقط امام اطراف النزاع حاليا وهما قبول الخطة ثم تفكيك الاتحاد المرتقب فيما بعد بسبب رغبة الصرب والكروات الواضحة فى الانضمام إلى صربيا وكرواتيا. أو الاعتراف بدولة مستقلة للمسلمين فى قلب أوروبا ولكن يجب الا يثير ذلك مخاوف الأوروبين (١٠٣).

ماذا يعنى هذا الكلام ؟ انه ببساطة يدل على وجود خوف حقيقى داخل أوروبا من وجود هذه الدولة الإسلامية كما

يتصورون. فبالطبع لا يمكن تصور أن اللورد أوين ممثل المجموعة الوروبية يعبر عن رأيه الشخصى فى تلك المحاضره وفقط وإلا ما استمر فى أداء مهمته بعد ذلك برغم اعتراض البوسنة عليه.

ولعل هذا يفسر إلى حد كبير سبب التردد والتخبط الاوربى تجاه الأزمة البوسنية تحديدا والسير بها فى اتجاه يمنع حدوث ذلك بقدر الامكان. وعندما اصبح لا مفر من وجود دويلة اسلامية صغيرة يتم حصر ابناء البوسنة فيها فإنه يحمل امريكا مسئولية ذلك ثم يطمئن الغرب بالا يخشى هذه الدويلة.

بهذا القدر من الصراحة والوضوح كشف اوين عن وجهه الحقيقى وربما الوجه الاوروبى الذى يمثله فى تلك المفاوضات والتى من بداياتها طرحت حلا يشكل تراجعا عن الاعتراف الدولى بالبوسنة كدولة مستقلة ذات حدود معترف بها دوليا وذات سيادة على اراضيها وكان ذلك فى حمية تسويق النظام العالمى الجديد والحديث عن الشرعية الدولية واحترام الحدود وعدم مشروعية العدوان وعدم التسليم بنتائجه.. الخ. إلا أن الخطة المطروحة جاءت لتنسف كل ذلك وتكرس الأمر الواقع الذى تم فرضه بقوة السلاح الصربى، فى ظل صمت غربى وضغوط من الوسيطين الدولى والاوربى وصلت إلى حد تحميل الضحية مسئولية ما حدث له.

فبعد ان منعوا عنهم السلاح قالوا لهم لقد انهزمتم على ارض الواقع وتمكن الصرب من ٧٠٪ من اراضى دولتكم فلماذا تكابرون.. كونوا عمليين وواقعيين فأنتم ضعفاء.. وعليكم ان تدفعوا ثمن هذا الضعف فنحن فى زمن الاقوياء والظلم السريع.. هذا هو المنطق الذى حكم سير المفاوضات من البداية حيث ممارسة الضغوط على الطرف البوسنى وتحميله مسئولية فشل

المفاوضات وتهديده بأنه سيخسر كل شئ. وازداد القاء اللوم على الضحايا عندما رفض البرلمان البوسنى خطة التقسيم الثلاثية الاخيرة وهى خطة تنسف الاعتراف الدولى السابق بالبوسنة وتتعارض مع الشرعية الدولية التى يتحدثون عنها وتنهى وجود دولته إلى الابد بل وتقسم بلاده بين المعتدين الصرب والكروات وتقر سياسة التطهير والابادة بل وتوسع نطاقها وتمنحها الشرعية.

وبينما دولة البوسنة تسير إلى نهايتها المرسومة - حتى وان طال الوقت - وحكومة البوسنة تبدى تشاؤمها ازاء امكانية التوصل إلى اتفاق نهائى فى محادثات جنيف وبروكسل "حضت الجمعية العامة الدول الاعضاء والمجتمع الدولى على التعاون مع جمهورية البوسنة والهرسك فى ممارسة حقها الطبيعى فى الدفاع عن النفس فى صورة منفردة أو جماعية وفقا للمادة ٥١ من الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة" (١٠٤).

اخيرا تذكر العالم المادة ٥١ وبدأ الكلام عنها ولكن من جهة ليست ملزمة لمجلس الامن، ومع ذلك امتنعت دول الاتحاد الاوروبى وروسيا عن التصويت بينما ايدت امريكا ذلك اما فى جنيف وبروكسل فقد أعلن اللورد أوين فشل المحادثات مشيرا إلى "أن الزعماء سيعودون للتفاوض فى ١٩٩٤/١/١٥" (١٠٥) ومع انهيار المحادثات تصاعدت حدة المعارك وحدة التصريحات المتبادلة من جميع الاطراف لا سيما الجانب الصربى والكرواتى.

وهكذا مضى ما يقرب من عامين وشعب البوسنة يتعرض لابشع عملية ابادة منظمة يشاهدها العالم على شاشات التليفزيون ليتابع يوما بيوم ما تم انجازه ! فبعد عشرة اشهر من القتال كان الغرب يتحدث عن سقوط ١٠٠ الف قتل وتشريد

اضعاف ذلك. واغتصاب ما يقرب من ٣٠ الف امرأة (وفقا لتقارير دولية) واكثر من ١٥٠ معسكر للاعتقال الجماعي تحمس احد الوزراء الفرنسيين وأعلن استعداد بلاده لفتح هذه المعسكرات بالقوة، لكنه تراجع بعدما تدخلت اللغة الدبلوماسية الباردة والتي لا تهتم كثيرا بالدماء الساخنة التي تراق بل وشكك البعض في أرقام القتلى والمغتصبات ليقلل من حجم المأساة. كما تم تدمير ما يزيد عن ٨٠٪ من مرافق الدولة. اما المساجد فقد وصل عدد ما تم تدمير ما يقرب من نصف المساجد البالغ عددها ١٥٠٠ مسجد بعضها تم ازالتها تماما إضافة إلى ازالة قرى بأكملها. كل ذلك يحدث امام العالم اجمع في الوقت الذى يجهد فيه البعض انفسهم بذكر الاسباب التي تعيق استخدام القوة ضد المعتدى سواء من الناحية العسكرية أو السياسية أو المناخيه بينما لم يطرحوا على انفسهم سؤال هام وهو ماذا لو ان الأمر معكوس والبوسنيون هم الذين يعتدون على الصرب هل كان الامر سيأخذ نفس الوقت من التفكير والتردد ؟ واذا كانت هناك اسبابا تمنع التدخل عسكريا ضد الصرب نتيجة لطبيعة الارض وقوة الجيش الصربي ووجود عوائق فنية ولوجوستيه الخ فهل سيكون الحال كذلك اذا تحول الصرب بعد اتمام عملهم في البوسنة إلى كوسوفو أو إلى مقدونيا ؟ وهل سيكتفي الصرب بالبوسنة التي وافق الغرب على افتراسهم لها ربما بغرض دفع الصرب إلى التخلى عن باقى مشروعهم التوسعى فى البلقان ؟.

لقد ترتب على هذا التردد وتبادل الاتهامات بين أوروبا وامريكا والامم المتحدة تراجع المجتمع الدولي - الغربي - عن اعترافه السابق بالبوسنة كدولة وتم طرح خطة تقر ما تم فرضه بالقوة، وتفرض التقسيم على اسس عرقية دينية إلى ثلاث دويلات، لكى يتم تحقيقها لابد وان تتم عملية تطهير وتفريغ

لبعض الاماكن من سكانها وتنفيذ عمليات الترحيل "الترانسفير" بواسطة المجتمع الدولى والأمم المتحدة ذاتها - أو ترك الحرب لفترة أخرى حتى يتم ذلك على ارض الواقع - بالرغم من انهما اصما آذان العالم بالشرعية الدولية ورفض سياسة التطهير العرقى وتقسيم البلاد على اسس عرقية.

أمام كل ذلك يحق لنا ان نتساءل هل هذا الحل الذى يتم طرحه وفرضه صدفة وتحصيل حاصل ؟ أم أنه يتم وفقا لسيناريو واضح ومحدد يهدف فى النهاية إلى الوصول لهذه المحطة وهذا الحل الذى يحمل اوين امريكا مسئولية الوصول اليه. ويطمئن أوروبا بالا تخشى منه وكأنه كان لا يريد ذلك ايضا ! فهل تخلت أمريكا فعلا عن دعم خطة التقسيم كما يزعم أوين أم أنه لازال يتمتع بجهل سياسى - كسابق عهده الملئ بالفشل - جعله يتصور ذلك. هذا ما سوف يتضح من سيناريو المفاوضات والضغوط والمناورات المقبلة .

الفصل التاسع

البوسنة وتأكيد الأدوار



لم يختلف الاداء الدولى – الغربى طبعا – فى عام ٩٤ * كثيرا سواء من حيث التخاذل والتخبط الذى هو فى أعتقادنا أقرب إلى التواطئ والتأمر وأن كان البعض يفضل تعبير العجز والتردد من باب التبرير والتجمل. أو من حيث استمرار التصريحات والتهديدات الجوفاء من حلف الناتو والأمم المتحدة والمجتمع الغربى والتى لا تحمى ولا تغنى عن قتل، ولهذا إستهان بها الصرب كثيرا. خاصة وأن بعضها للاستهلاك وحفظ ماء الوجه وبعضها الأخر لم يخلو من تبادل الاتهامات بين الاطراف الدولية حين القى كل طرف مسؤلية ما يحدث على الطرف الأخر واستغل الصرب هذا التنافض جيدا.

باختصار واصلت القوى الدولية الفاعلة تحركها فى اتجاه إدارة الأزمة – وتحقيق بعض المكاسب على حساب شعب البوسنة – أكثر من تحركها فى اتجاه إنهاء الأزمة حيث ألقت خلافات المصالح وتصارع الأدوار بظلالها الكئيبة على الأزمة منذ تفجرها. وما بين رغبة روسيا فى إستعادة دورها وطموحها المفقود على الصعيدين العالمى والأقليمى وإبلاغ العالم أنها ليست مجرد تابع للسياسة الأمريكية كما حدث فى حرب الخليج، خاصة عندما لم يتفهم الغرب جيدا المصالح الروسية فى تركتها القديمة، ورغبة أمريكا فى تأكيد انفرادها بقيادة العالم وأختبار استراتيجيتها الجديدة عقب حرب الخليج وسعيها إلى ملء الفراغ الحادث فى أوروبا بعد أن احكمت تواجدها فى الخليج، ما بين هاتين الرغبتين، صارت البوسنة

* اعتمدت على :
١ – نشرة المحروسة الأسبوعية "الصحافة العربية فى اسبوع" لعام ١٩٩٤.
٢ – شهريات السياسة الدولية ونشاط الأمم المتحدة لعام ٩٤ العدد ١١٧–١١٨–١١٩.

حقل التجارب الذى يتم فيه اختبار الإرادات والطموح وتم توظيف كل شئ ابتداء من الصراعات الداخلية فى روسيا والصراع بين الكونجرس والرئيس كلينتون والتضارب بين المطالب الأمريكية والأوروبية وضياع الأمم المتحدة بين الأثنين وهو تضارب أثار حيرة البعض وأن كان يمكن تفهمه - دون قبوله طبعا - فى ظل ما طرح سابقا عن الموقف الأمريكى واستراتيجيته الجديدة.

استمرار خيانة البوسنة

قبل أن ينتهى عام ٩٣ وجه الجنرال الفرنسى "بريمكون" قائد القوات الدولية إنتقادا إلى سياسة الأمم المتحدة والمجموعة الأوروبية فيما يتعلق بالنزاع فى البوسنة، مشيرا إلى أن القوات الدولية المتوفرة تشكل ربع القوات اللازمة لحماية المناطق الأمنة. وطلب إعفاءه من منصبه وتم تعين الجنرال البريطانى مايكل روز خلفا له. كذلك استبدل بطرس غالى مندوبه الخاص السابق وعين بدلا منه اليابانى "اكاشى". ثم بدأ العام بتصريح لوزير الخارجية الأمريكى أكد فيه أن حلف الأطلنطى (الناتو) يستعد لشن غارات جوية ضد مدفعية الصرب حول سراييفو وهو ما أكده الرئيس كلينتون ايضا، ولكن سرعان ما تراجع كلينتون عن دعوته للعمل العسكرى مفضلا التسوية السلمية وذلك عقب اجتماعات الحلف فى بروكسل، بعدها رفض بطرس غالى مقترحات الحلف بشن غارات جوية ضد مواقع الصرب لفك الحصار عن توزلا وسربينتشا وعلق بطرس غالى موافقته على طلب اكاشى لذلك .

وهكذا أمريكا تدعو إلى غارات جوية ثم تتراجع بعد رفض الحلف ثم يعود الحلف ويقترح شن غارات فيرفض غالى.

هل يمكن تفسير هذه اللوغاريتمات بعيدا عن تقسيم الادوار وتصارع المصالح والتى تصب - وصبت من قبل - لصالح الصرب ؟!

كان تبرير د. غالى الدائم هو حرصه على أرواح جنود الأمم المتحدة - نعم ماذا تساوى أرواح مسلمي البوسنة بجوار أصحاب البارية الزرق ؟ - والحجة الثانية هى اعطاء الفرصة للمفاوضات - طبعا إلى الابد - والحقيقة أن د. غالى كان سيحظى باحترام أكبر من الجميع لو قال الحقيقة وهى أن هناك توزيع أدوار وتعارض مصالح وأن الدول التى بيدها الأمر والنهى لا تريد عمل ذلك الان وعندما تريد ستفعل بصرف النظر عن انتظار موافقتى ولأنها لا تريد فليس أمامي سوى الحديث عن التفاوض حتى يرتبوا أمورهم ويقرروا ماذا سيفعلون عندها تبدا الأمم المتحدة فى منح البركات وتمهيد الطريق واعطاء الغطاء الدولى لتتأكد وظيفة الاسم المتحدة باعتبارها أمريكا بالاساس تحقق بها ما تريد .

وهكذا أدت الارادات السياسية العاجزة حينا والمشتتة حينا أخر والمناورة فى أغلب الأحيان إلى مواصلة صرب البوسنة لاعمالهم الإجرامية والاستهانة بكل القرارات الدولية والاستهزاء بالقوات الدولية والاعتداء على الملاذات الأمنة الموضوعة تحت حماية الأمم لمتحدة وقواتها الدولية الهزيلة ! .

لم ينل البوسنيون المسلمون نصيبهم من الاعتداءات الصربية وفقط ولكن من الكروات أيضا خاصة بعد فشل بيجوفيتش وتودجمان فى الوصول إلى اتفاق لوقف إطلاق النار بين الكروات والمسلمين حتى أن بيجوفيتش طالب مجلس الأمن (١/٢٨) ببحث العدوان الكرواتى على أراضى البوسنة. وقد هددت القوى الدولية بفرض عقوبات اقتصادية ضد كرواتيا ما لم

تسحب قواتها من وسط البوسنة. وجدير بالذكر أن الصرب والكروات كانا قد توصلا إلى اتفاق تمهيدى للتطبيع بينهم فى بداية العام.

عندما وقعت مجزرة سوق سرايبفو (٥/٢) تصاعدت حدة التصريحات الغربية ضد الصرب وعقد كلينتون اجتماعا لكبار مستشاريه لبحث سبل الرد على تلك المجزرة، وتحمس د. بطرس غالى وطلب من حلف الناتو اتخاذ قرار بالقصف الجوى وفعلا تم توجيه إنذار فى ٢/٩ بضرورة سحب الأسلحة الثقيلة لمسافة ٢٠ كم خارج العاصمة فى مدة اقصاها عشرة أيام وإلا تعرضوا للقصف. هنا بدأ التحرك الروسى لاحتواء الموقف واجهاض الضربة العسكرية وتزرعت روسيا بحجج قانونية حيث أعلن وزير خارجيتها أن مجلس الأمن هو فقط الجهة المسؤلة عن أصدار مثل هذه التحذيرات موكدا أن مثل هذه الضربة ستؤدى إلى عواقب وخيمة .

كان هدف روسيا من حديثها عن مسؤلية مجلس الأمن تعطيل الغارات وشل يد الناتو عن الحركة بعيدا عن المجلس لإدراكها صعوبة صدور مثل هذا القرار خاصة فى ظل رفضها ورفض الصين أيضا - عارضت اليونان واللورد اوين العمل العسكرى أيضا - وعندما رد مجلس الأمن بأن هذه الصلاحية قد سبق وأعطاها المجلس لحلف الناتو بموجب القرار ٨٣٦ **شرعت روسيا فى نشر ٨٠٠ جلدى على مرتفعات سرايبفو** للحيلولة دون تنفيذ الغارات، فى الوقت الذى أعلن فيه الصرب موافقتهم على سحب الأسلحة بعد أن هدد زعيمهم بالانتقام من الأجانب - قوات الأمم المتحدة - اذا تمت الغارات وعليه تراجع الناتو وأعلن كلينتون أن الصرب استجابوا لمضمون الانذار ! وهكذا نجحت المناوره الروسية فى تعطيل الضربة الجوية بعدها

حاول الصرب كعادتهم اختبار الإرادة الدولية مرة أخرى وحلقت طائراتهم الهليوكبتر فوق منطقة محظور فيها الطيران فتصدت لها المقاتلات الأمريكية وأسقطت ٤ طائرات وكانت هذه أول رسالة حقيقية من الغرب للصرب توضح لهم أن هناك حدودا لتجاوزاتهم، وإن ظلت فى حدود الردع ليبقى الوضع كما هو عليه إلى أن تتم التسوية.

فى هذه الاثناء بات البلقان على حافة الهاوية حيث توترت العلاقات بين اليونان والبانيا خاصة بعد أن أعلنت البانيا استعدادها لوضع اراضيها ومطاراتها تحت تصرف قوات الحلف الأمر الذى أغضب اليونان. كما صعد الكروات هجماتهم ضد القوات البوسنية فى بيهاتش وترافنيك وما جلاى وتدخلت الولايات المتحدة ونجحت فى احتضان المحادثات بين الكروات والمسلمين، وتم التوصل إلى اتفاق يقضى بإقامة إتحاد كونفدرالى بينهم واتفقوا على المسائل الدستورية وتوزيع المناصب ألخ. وبذلك تم تخفيف الضغط - ولو مرحليا - عن المسلمين بتحييد الطرف الكرواتى وتم افشال محاولة التطبيع بين الصرب والكروات وكان ذلك بداية التحرك فى اتجاه الحل الأمريكى.

جورازدى وأكاشى

تمثل جورازدى أهمية استراتيجية كبرى بالنسبة لصرب البوسنة والمسلمين فهى المدينة الوحيدة على نهر درينا وغير خاضعة كليا لسيطرة الصرب وتشكل تقاطعا هاما للطرق كما يوجد بها مصنع للأسلحة. لذلك كثف الصرب هجماتهم العسكرية ضدها بهدف احكام السيطرة عليها خاصة بعد إعلان الكونفدرالية بين الكروات والمسلمين. ومع تصعيد هجماتهم والأصرار على اقتحامها شنت قوات الناتو غاراتها على المواقع

الصربية ووجهت انذارا بضرورة سحب الأسلحة الصربية لمسافة ٢٠ كم. وتم تحديد يوم ٤/٢٧ كموعد نهائي تستأنف بعده الغارات) لاحظ أن الغارات ليس الهدف منها تدمير الأسلحة الثقيلة - أو اضعاف الصرب - ولكن سحبها والمحافظة عليها)

فى هذا الوقت نجح "أكاشى" ممثل الأمين العام للأمم المتحدة في إحتواء الموقف والتحايل على الانذار - كما فعلت روسيا من قبل - وعقد اتفاقا خاصا مع الصرب لوقف اطلاق النار، وإعادة انتشار القوات الدولية المكلفة بحماية جورازدى (١٩٦ جندى بريطاني، ١٠ نروجين، ٧٦ اوكرانى !)، وسحب الأسلحة الثقيلة لمسافة ٣ كم٢ فقط بدلا من ٢٠ كم. واستجاب الصرب لذلك وعليه تصاعدت حدة الاتهامات بين الأمم المتحدة وحكومة البوسنة والتى اتهمت "اكاشى" بعدم الالتزام ببنود الانذار وشن بيجوفيتش هجوما عنيفا عليه وطالب بإقالته إلا أن د. غالى أكد أن أكاشى موضع ثقته، من جانبه إتهم "اكاشى" المسلمين بأنهم يبالغون فى المأسى لاكتساب التعاطف الدولى (كذا !) كما أنهم يستغلون الغارات الجوية ضد الصرب بشن هجمات عليهم لتحقيق مكاسب !

عند هذا الحد من التعقيد والتشابك تم الإعلان عن تشكيل مجموعة إتصال دولية من الاتحاد الأوروبى وروسيا وأمريكا بهدف الوصول إلى اتفاق لوقف إطلاق النار، والبدء فى **محادثات بهدف تقسيم البوسنة إلى كيانين أحدهما صربى** ويحصل على ٤٩٪ من الأراضى والأخر يضم الكروات والمسلمين ودخل "اكاشى" على الخط وأعلن أن صرب البوسنة على استعداد للتخلى عن جزء كبير من الأرض على سبيل التسويق للخطة. بينما وصف بيجوفيتش الخطة بأنها "خيانة وتكافئ المعتدى" خاصة وأن الخطة لم تتحدث عن وحدة اراضى

البوسنة، وعدم جواز انضمام صرب البوسنة إلى صربيا وعودة اللاجئين وطالب بزيادة حصته من الأرض إلى ٥٨٪.

حمل البعض الحكومة البوسنية مسؤلية تعطيل السلام كعادتهم دائما بإلقاء اللوم على الضحايا. وأرجع البعض موقف بيجوفيتش المتشدد (!) إلى الكونفدرالية مع الكروات بالرغم من أن هذه الكونفدرالية اساسا عنصر ضغط واحتواء وتحجيم للمسلمين.

فى ٧/٦ أعلن بيجوفيتش أن حكومته لن ترفض الخطة السلمية الجديدة اذ ليس من الحكمة رفضها بصورة كلية ولابد من مواصلة العملية السلمية رغم أن هذه لا تلبى المطالب التى تقدمت بها حكومة البوسنة .

وبالرغم من إعلان البوسنة هذا واصل الصرب تعنتهم وتحديهم للمجتمع الدولى بعد أن اختبروا هشاشته وتخاذله، خاصة وان خطة السلام المطروحة غاب عنها مبدأ قانونى هام وجع الغرب به رأس العالم كله عند اختلال الكويت وهو عدم مكافأة المعتدى على عدوانه، ومثلما سطى الصرب على أرض البوسنة قاموا بعملية سطو على مستودع للأسلحة الثقيلة تابع للأمم المتحدة ونالوا على ذلك بضعة غارات جوية أعلنوا على إثرها استعدادهم لإعادة كافة الأسلحة المسروقة .ولاشك ان استهانة الصرب بالغارات الجوية نتيجة لقلة فاعليتها كان يدفعهم إلى التعنت وإلى مواصلة العدوان.

تزامن مع رفض الصرب لخطة السلام وتلك الضربة الجوية قطع جمهورية صربيا والجبل الأسود (يوغسلافيا الجديدة) علاقاتهم السياسية والاقتصادية بصرب البوسنة لدفعهم إلى قبول خطة السلام بعد فشل الوسيط الدولى "ثور فالدشتو" فى اقناعهم. وهنا بدأ الضغط الفعلى على الصرب خاصة وأن

الاتصالات الأوروبية والأمريكية كانت قد بدأت مع ميلوسيفيتش رئيس صربيا لاغراءه للضغط على الصرب كما أعلنت روسيا أنها ستوافق على رفع الحظر عن البوسنة اذا ما رفض الصرب خطة السلام وهو ما لم يحدث. وبالرغم من أن قرار يوغسلافيا الجديدة بقطع علاقاتها بصرب البوسنة قد أحدث ردود فعل غاضبة لديهم وداخل الكنيسة الصربية التى أعلنت وقوفها إلى جانب صرب البوسنة وطالبت بعودة العلاقات مرة أخرى، فإن ميلوسيفيتش مهندس الحرب فى يوغسلافيا السابقة والأب الروحى لكارادزيتش سفاح البوسنة كانت له حسابات أخرى. أهمها رفع الحظر المفروض على بلاده وتحسين صورته أمام الغرب وتلقفت روسيا هذه الخطوة مسعاها لدى مجموعة الاتصال لرفع الحظر عن يوغسلافيا الجديدة، ولكن اصطدم هذا المسعى بالرفض الأمريكى لعدم وجود ضمانات تؤكد توقف بلجراد عن تقديم المساعدات والدعم لصرب البوسنة فعلا. ولتجاوز هذه العقبة نشأت فكرة نشر مراقبين على الحدود وهو ما رفضت صربيا أولا ولكنها عادت واستجابت لطلب روسيا. وبناء على ذلك وافق مجلس الأمن واصدر ثلاث قرارات بتخفيف الحظر على يوغسلافيا الجديدة ومراجعة ذلك دوريا، كما وعدت صربيا بدفع صرب البوسنة لقبول خطة السلام بشرط رفع الحظر نهائيا. وهكذا وضعت صربيا أقدامها على طريق المساومة وتحقيق مصالحها هى أيضا وجلى ثمار الخطة الدولية للسلام وتأكيد دورها مثلما تأكد الدور الروسى من قبل.

أما صرب البوسنة فبعد ٢٤ ساعة من صدور القرار قاموا بشن الهجمات على المدن البوسنية كما رفض برلمانهم خطة السلام فى استفتاء شهد له بعض المراقبون بكثافة الاقبال وجاءت نسبة الرفض ٩٦٪. وأن كان هذا لم يمنع كارادزيتش

من استخدام اسلوب "العصا والجذرة" كالمجتمع الدولى الغربى، وأعلن استعداده لتقديم تنازلات لصالح الاتحاد بين الكروات والمسلمين مع التهديد بخطف أفراد القوات الدولية واسقاط طائرات الأمم المتحدة اذا تم رفع الحظر عن البوسنة، كما هدد بحرمان المسلمين من كافة سبل الحياة ما لم ترفع صربيا حصارها عن صرب البوسنة. فى نفس الوقت أكدت المفوضة العليا لشؤون اللاجئين (٩/١) تزايد عمليات التطهير العرقى ضد مسلمى البوسنة.

البوسنة بين الكونجرس وكلينتون

فى ظل الصراع بين الديموقراطيين والجمهوريين المسيطرين على الكونجرس ورغبتهم فى احراج كلينتون وتأكيد عجزه. تم توظيف البوسنة أيضا فى هذا الصراع، حيث واصل الكونجرس ضغطه وتصويته فى اتجاه رفع الحظر من مسلمى البوسنة وصدرت قرارات كثيرة بذلك. إلا أن كلينتون واجهها بالرفض والاعتراض خاصة وأنه يملك صلاحية ذلك، وأن كان قد أعلن أنه سيوافق على رفع الحظر اذا رفض صرب البوسنة خطة السلام ولم يحدث ذلك.

عندما وافق مجلس الشيوخ على اقتراح بتوجية دعوة إلى كلينتون برفع الحظر عن البوسنة من جانب واحد اذا ما رفض الصرب خطة السلام أبلغ كلينتون المجلس أنه سيطلب ذلك من الأمم المتحدة. إلا أن الأمم المتحدة هددت بسحب قواتها اذا حدث ذلك ولاشك أن التهديد الدائم بسحب القوات الدولية من قبل الأمم المتحدة وأمينها العام يشكل عنصر ضغط على مسلمى البوسنة وافقد الأمم المتحدة مصداقيتها بل وضعها فى موضع الشكوك. كذلك عبرت بريطانيا عن عدم ترحيبها بالموقف

الأمريكي يقولها أنها ستمتنع عن التصويت في حالة الاقتراع على رفع الحظر عن مسلمي البوسنة لكنها لن تستخدم الفيتو، وأعلن مسؤل روسي صراحة أن مطلب مسلمي البوسنة بإنشاء دولة موحدة في البوسنة هو مطلب لا يقبله المجتمع الدولي. ومع استمرار ضغط الكونجرس في اتجاه رفع الحظر - خاصة وأنه يفضل ذلك عن المشاركة بجنود أمريكيين في البوسنة - وقرب موعد الانتخابات لمجلس الشيوخ أعلن كلينتون أنه سيعرض على مجلس الأمن في نهاية أكتوبر مشروع قرارا لرفع الحظر عن البوسنة وفي حالة الرفض ستتخذ أمريكا اجراءات من جانب واحد لتسليح البوسنة. وقد قوبل هذا الاقتراح بالاعتراض من قبل الأطراف الأوروبية وروسيا المشاركين في القوات الدولية وتحدث بعضهم عن سحب القوات الدولية من البوسنة وأعلن البعض أننا لا نستطيع مساعدة أطراف لا تريد الوصول إلى حل. مساويا بذلك بين القاتل والقتيل بين الغاصب والمغتصب بين الجلاد والضحية ومتجاهلا ما يحدث على أرض الواقع فعلا. الأمر الذي يضعهم في موضع الشبهات والتواطؤ مع الصرب.

ولان الانتخابات على الأبواب والكونجرس يواصل ضغوطه بات من الصعب على كلينتون التراجع عما وعد به كما وأنه يخشى رفض مجلس الأمن لاقتراحه أو اغضاب حلفاءه. لذلك اتخذ كلينتون قرارا وسطيا بوقف مشاركة أمريكا في تنفيذ الحظر على البوسنة واصدر أوامره بتحويل مسار السفن المتجهة إلى البوسنة وكرواتيا لتشارك في الحظر.

وبرغم ضعف القرار وقلة تأثيره حيث تفتقد البوسنة السواحل أصلا أحدث هذا القرار رد فعل عنيف داخل روسيا "المتلككة". فأصدر برلمانها قرارا بأغلبية ٢٧١ صوتا مقابل ٣ اصوات دعى فيه الرئيس يلتسين إلى اتخاذ إجراءات لتحييد ما

أطلقوا عليه "الخطوات المدمرة" التى اتخذتها أمريكا فى البوسنة. وألمح رئيس لجنة الشؤن الخارجية فى البرلمان الروسى أن بلاده قد تقدم على إرسال أسلحة إلى صرب البوسنة. وكأنها لا ترسل فعلا. فقد ترددت انباء أن الجيش الروسى افرغ كل المخازن التى كان يملكها فى ألمانيا الشرقية وأرسلها إلى الصرب وأنهم حصلوا أثناء الحظر أيضا على ما يقرب من ٩٢ دبابة و٨٢ قطعة مدفعية، لكن لا مانع من أن تغضب روسيا للقرار الأمريكى عديم الجدوى وأن تستخدم الفيتو لأول مرة منذ ظهور جورباتشوف وتفكك الاتحاد السوفيتى ضد قرارا تقدمت به الدول الإسلامية ودول عدم الإنحياز يقضى بحظر نقل الوقود من جمهورية صربيا إلى صرب البوسنة وأن يقوم مراقبون دوليين بالأشراف على ذلك كما استخدمت روسيا "الفيتو" ضد صدور بيان من مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبى يدعو الصرب إلى انهاء القتال حول "بيهاتش".

وهكذا صارت البوسنة ملعبا للجميع يمارس فيه كل طرف فنونه ومهاراته مستخدما كل كروته لتحقيق مصالحه حتى أن كارتر أيضا وجد الفرصة سانحة لعرض خدماته ووساطته والتى ستصب لصالح الديموقراطين فى حال نجاحها وتوصل إلى عقد اتفاق هدنه بين الأطراف المتصارعة والعودة إلى التفاوض. وبرغم أن المراقبين اجمعوا على هشاشة هذا الاتفاق وأن صرب البوسنة واصلوا انتهاكهم له بل واعلنوا حالة التعبئة العامة فى شمال البوسنة بدعوى مواجهة ما وصفوه بالعدوان الكرواتى فقد مهد كارتر الطريق أمام كلينتون لانجاز الاتفاق الأخير. وبرغم بقاء الحال كما هو عليه بالنسبة لشعب البوسنة الذى تعرض طوال الثلاث سنوات السابقة للقتل والتشريد

واستمرار الاداء الغربى أيضا على ما هو عليه تقريبا فقد تأكدت خلال العام بعض الحقائق وهى :

١- تأكيد أهمية روسيا فى هذا الصراع وضرورة مراعاة لمصالحها بشكل أكبر خاصة وانها اثبتت انها الأكثر فاعلية حينما اوقفت الغارات على مواقع الصرب عقب مجزرة سراييفو بنشر قواتها على تلال سراييفو وحين استطاعت اقناع صرب البوسنة بفتح مطار توزلا بينما فشلت جهود الأمم المتحدة والقوات الدولية فى ذلك الأمر الذى وصفه البعض بأنه صفعة قوية للأمم المتحدة وقد عبر يلتسين صراحة عن ذلك حين أكد أن السياسة الروسية لم تعد تفتقد روح المبادرة كالسابق وأنها بعد أن حققت نجاحا ضخما فى البوسنة ستطرح أفكارا محورية فيما يخص المشاكل العالمية.

٢- تأكيد الدور الفعال لحلف الأطلنطى فيما يخص الأمن الأوروبى خاصة حين شرع فى تنفيذ غاراته الجوية المؤثرة على مواقع الصرب. وبالرغم من محدودية هذه الغارات وعدم كفايتها خاصة وأنها كانت بهدف سحب الأسلحة الثقيلة لا تدميرها إلا أنها أكدت كذب كل الادعاءات السابقة عن صعوبة القيام بعمل عسكرى ضد مواقع الصرب والتحجج بضرورة وجود موجهين أرضيين ألخ وأكدت أيضا أن مثل هذا الاجراء وتلك الغارات لو كانت قد تمت منذ وقت مبكر لاختلفت النتائج فى البوسنة عما هى عليه الآن ولانتهت مأساة هذا الشعب قبل حدوث كل هذه المآسى والجرائم فى حقه أو كانت قد حدثت بدرجة أقل حدة وأكثر إنسانية!! .

٣- تأكيد هامشية الدور الأوروبى ومحدوديته وإن كان قد لعب دورا فيما يتعلق بالضربات العسكرية ولجنة الاتصال

وهو دور استطاعت جمهورية صربيا أيضا أن تحصل على مساحة تساويه !

٤- تأكيد دور الولايات المتحدة وأهمية تواجدها في أوروبا خاصة منذ توقيع اتفاق قيام الكونفدرالية بين الكروات ومسلمي البوسنة وهي الكونفدرالية التي مهدت الطريق أمام خطة لجنة الاتصال بتقسيم البوسنة ودارت على أساسها المفاوضات والتي مهددت لأمريكا الدخول على خط المفاوضات.

٥- تأكد لأطراف الصراع بأن الحسم العسكري لصالح أي طرف هو عملية مستحيلة خاصة في ظل تدخل الحلف الأطلنطي ضد صرب البوسنة ومنعهم من تحقيق مكاسب جديدة واستمرار الحظر على مسلمي البوسنة بحيث بات تعديل الأوضاع على الأرض عسكريا هو أمر صعب المنال ما لم يتدخل عنصر جديد والملاحظ أن المسلمين عموما هم الطرف الخاسر في هذا الأمر كله وأن كانوا لم يخسروا أكثر مما خسروا.



الفصل العاشر

الـصـــــرب

والتلاعب بالمجتمع الدولى

لم يقتصر سعى مجموعة الاتصال* على استرضاء صرب البوسنة لقبول خطة السلام بادخال تعديلات عليها بحيث يمكنهم اقامة اتحاد كونفدرالى مع جمهورية صربيا - وهو تعديل وصفته حكومة البوسنة بأنه هراء كما رفضه كلينتون معلنا أن بلاده تتمسك بوحدة أراضى البوسنة ! - بل استجابت للمناورة الصربية الداعية إلى وساطة الرئيس كارتر - لكسب الوقت - والتى انتهت بالاتفاق على وقف اطلاق النار واعطاء الأطراف هدنة مدتها أربعة أشهر يعودون خلالها إلى مائدة المفاوضات وقد تعطل هذا الاتفاق وقيل أن السبب هو عدم انسحاب القوات البوسنية من جبل ايجمان الاستراتيجي واتهمت حكومة البوسنة مجموعة الاتصال بالازعان لمطالب الصرب.

مع فشل مجموعة الاتصال فى اقناع قادة الصرب بقبول خطة السلام المقترحة والمعدلة ازداد التوتر بين المسلمين والكروات خاصة فى مدينة موستار. وهو توتر تم احتواءه بالموافقة على التحكيم الدولى لانقاذ الاتحاد الكونفدرالى واعقب ذلك تشكيل قيادة مشتركة بينهم لمواجهة الاعتداءات الصربية.

انتهكت صربيا الخطر الدولى وزودت صرب البوسنة بالأسلحة والمؤن كما رفضت الحكومة البوسنية اقتراحا فرنسيا بعقد مؤتمر دولى لان ذلك يعنى البداية من نقطة الصفر واستطاعت قواتها انتزاع مواقع استراتيجية من الصرب فى شمال البوسنة وحول العاصمة وردت الميلشيات الصربية على تلك الانتصارات بقصف جورازدى وموستار واعترفت الأمم

---

* اعتمدت على :

١ - نشرة المحروسة السبوعية "الصحافة العربية فى أسبوع لعام ٩٥.

٢ - شهريات السياسة الدولية ونشاط الأمم المتحدة لعام ٩٥ العدد١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢.

المتحدة بفشلها في وقف اعتداء الصرب بينما طالبت أمريكا المجتمع الدولي بالضغط على مسلمي البوسنة لمنعهم من اشعال حرب واسعة في البلقان ! وبدأ الحديث عن سحب القوات الدولية وقد لوحظ أن مثل هذه الضغوط والتهديدات بسحب القوات الدولية كانت تتكرر كلما حققت القوات البوسنية انتصارات عسكرية.

وهكذا لم تسفر الهدنة التي انجزها كارتر عن وقف اطلاق النار بشكل فعلي وحقيقي وكانت اقصى انجازاتها وصول بعض المساعدات لمسلمي البوسنة بينما واصل الصرب قصفهم الوحشي لسراييفو وبيهاتش وعادوا مرة أخرى واستولوا على الأسلحة الثقيلة من مستودعات القوات الدولية وعندما وجه الناتو انذاراته للصرب وحاول التصدى لهذه التجاوزات استولى الصرب على افراد القوات الدولية ذاتها ونشأت أزمة الرهائن وهدد الصرب باستخدامهم كدروع بشرية اذا ما تعرضوا لهجوم الناتو وأصبحت صورة هؤلاء الجنود الموثوقين بالسلاسل والمصلوبين على بوابات المواقع الصربية دليلا جديدا على استهانة الصرب بالمجتمع الدولي الذى ظهر عجزه امامهم ولم يكتفى الصرب بذلك بل واصلوا هجماتهم على سراييفو مستخدمين الدبابات لأول مرة ورفض مجلس الأمن القيام برد عسكرى ضد الصرب وقوبل هذا القرار بانتقادات حادة من واشنطن وحكومة البوسنة واعتبر كلينتون أن الأمم المتحدة ارتكبت خطأ برفضها الأمر بشن ضربات جوية على صرب البوسنة. ومع ازدياد تعنت الصرب وتهديهم لحياة الرهائن نفذ حلف الناتو تهديده وشن غارات جديدة على مستودعات الذخيرة التابعة للصرب وردت القوات الصربية على ذلك بقصف

هستيرى على المناطق الأمنة واحتجزت المزيد من أفراد القوات الدولية واقتادتهم إلى أماكن محتمل الهجوم عليها من قبل الناتو.

هدد زعيم صرب البوسنة بأنه لن يتم الأفراج عن الرهائن ما لم يتعهد الناتو بوقف غاراته واجمع المراقبون على أن المجتمع الدولى يدور بأزمة البوسنة فى حلقة مفرغة. وطالب البعض منهم بأن يتم ترك أهل البوسنة - مسلمين وصرب وكروات - ليحلوا مشاكلهم بأنفسهم على أن يتم رفع الحظر عن مسلمى البوسنة وربما يرجع هذا الطلب إلى بعض الانتصارات التى حققتها القوات البوسنية والكرواتية. وهى انتصارات دفعت المجتمع الغربى إلى توجية نداءات تدعو إلى وقف الهجوم البوسنى على مواقع الصرب وقد وصفها وزير خارجية البوسنة بأنها نوع من النفاق خاصة وقد تم ترك حصار سراييفو ثلاث سنوات.

كرد فعل على تلك الأحداث اتفق حلف الأطلنطى ممثلا فى وزراء دفاعه والاتحاد الأوروبى على تشكيل قوة تدخل سريع متعددة الجنسيات استجابة لاقتراح فرنسى بريطانى بينما رفضت أمريكا المشاركة فى تلك القوة ووافق مجلس الأمن على هذا الأقتراح - امتنعت روسيا والصين عن التصويت - خاصة بعد أن اعترفت الأمم المتحدة بعجزها عن حماية الأماكن الأمنة بسبب رهائنها لدى الصرب. فى نفس الوقت نجحت الوساطة التى قام بها رئيس صربيا ميلوسيفتش فى الافراج عن الرهائن وقيل أن هذا تم فى اطار صفقة سرية تتوقف بموجبها غارات الناتو وان كان د. بطرس غالى نفى ذلك.

مع نجاح القوات البوسنية فى اختراق حصار سراييفو والاستيلاء على ١٥٠ كم حول العاصمة تدخل مجلس الأمن

ودعا إلى وقف اطلاق النار وحدد بيجوفيتش شروطة وهى رفع الحصار عن سرايبفو وقبول الصرب لمشروع السلام الدولى.

تعثرت محاولة وقف اطلاق النار الثانية خاصة بعد أن شدد الصرب هجماتهم على سربينتشا وقد ارجعت رويتر تعثر الجهود السلمية بسبب العروض السرية التى قدمها مسؤلو الأمم المتحدة للصرب وكانت الأهرام قد تحدثت نقلا عن نيويورك تايمز بأن هناك رسالة سرية بعث بها اكاشى إلى الصرب أكد فيها أن قوة التدخل السريع لا ينبغى اعتبارها تهديدا للصرب وقد تعرض اكاشى بسبب هذه الرسالة إلى هجوم من أمريكا على لسان المندوبة الأمريكية فى الأمم المتحدة مؤكدة أن الولايات المتحدة سيعتريها القلق اذا ظهر أن مهمات الرد السريع سوف لا تختلف عن القوات الدولية.

شدد الصرب من هجماتهم على مدينة سربينتشا حتى سقطت فى ايديهم فى ٩٥/٧/١١ وفشلت غارات الاطلنطى فى الحيلولة دون سقوط المدينة.

أدان مجلس الأمن بشدة الهجوم الصربى كالعادة. وطرحت الولايات المتحدة والدول الأوروبية مشروع قرار يطلب من الأمين العام إستخدام "جميع الموارد" التى لديه لتستعيد سربينتشا مكانة الملاذ الأمن !! ولكن "اكاشى" أعلن أن هذا غير ممكن وان الطريق الوحيد هو استئناف المفاوضات.

عقب نجاح الصرب فى اقتحام سربينتشا وحيرة المجتمع الدولى فى التعامل مع الحدث بدأ الصرب هجومهم على منطقة زيبا الأمنة وطالب زعيم صرب البوسنة القوات المسلمة بتسليم أسلحتها والاستسلام الفورى ورفض اجلاء السكان مع توجية تحذيراته إلى قوات الأطلنطى وأن كان قد أبدى استعداده بمبادلة جورازدى بأراض من العاصمة سرايبفو.. وكانت روسيا قد

اقترحت تنازل شعب البوسنة عن الملاذات الآمنة مقابل وقف الهجوم الصربى.

أدى سقوط المناطق الآمنة فى أيدى الصرب إلى ردة فعل عنيفة داخل اطراف المجتمع الدولى خاصة فرنسا التى كانت أول من اقترح انشاء قوة تدخل سريع لحماية افراد القوات الدولية عقب أزمة الرهائن حيث وجه شيراك نداءه إلى الديموقراطيات الغربية بضرورة التصدى للصرب ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة العسكرية مشيرا إلى أن محاولة استرضاء الصرب الآن تشبه محاولة أوروبا استرضاء هتلر - وهى محاولات باءت بالفشل ولم تمنع هتلر من اجتياح أوروبا - وهدد بسحب القوات الفرنسية اذا لم تستجب بريطانيا وأمريكا لهذا الطلب.

أنشغلت أمريكا والدول الأوروبية بتسوية خلافاتهم حول هذه النقطة خاصة بعد أن هاجمت فرنسا أمريكا وظهر تباين بين الأثنين فى سبل معالجة الأزمة حيث طالبت فرنسا بمشاركة قوات أمريكية وألمانية فى الدفاع عن جورازدى بعد ذلك اجتمعت مجموعة الاتصال بلندن وشارك فى هذا الاجتماع حلف الاطلنطى والوسيط الأوروبى "كارل بيلت" الذى حل محل أوين وتمخض هذا الاجتماع عن قرارا هزيل لا يخلو من العجز وظهر منه عدم اتفاق الأطراف على رأى واحد، وأن كان قد وجه تحذيرا للصرب بأنهم سيتعرضون لضربات جوية اذا ما هاجموا جورازدى أو جنود القوات الدولية وهذا يعنى أن ما سقط قد انتهى أمره.

رحبت الولايات المتحدة بقرارات المؤتمر وأعلن كلينتون استعداد بلاده القيام بكل ما تستطيع لاحباط هجمات الصرب واحلال السلام فى البوسنة ولا ندرى كيف بينما يرفض

الاشتراك في قوة التدخل السريع. من ناحيتها هاجمت روسيا اقتراح استخدام القوة ووصفت المؤتمر بالفشل في تحقيق اجماع على قرارته، واستراحت بريطانيا لنتائج المؤتمر خاصة وأنها من البداية ربطت القيام بعمل عسكري ضد الصرب بمشاركة أمريكا. أما فرنسا فقد رأت في قرارات المؤتمر مزيجا من الطريقة الفرنسية والأمريكية القائمة على تحديد خطوط حمراء للصرب لا يجب تجاوزها بعد أن فعلوا ما فعلوا ! أما حكومة البوسنة فقد اعتبرت قرارات المؤتمر ضوء أخضر للصرب لمواصلة عدوانهم وتعنتهم مؤكده أن ذلك لن يمنع الصرب من اقتحام جورازدي.

والملفت للنظر أنه عندما وجهت أمريكا وفرنسا وبريطانيا تحذيرا لصرب البوسنة بشن غارات عليهم اذا هاجموا جورازدي صدر بيان من الأمم المتحدة يؤكد ان الأمين العام هو الذي يملك صلاحية الأمر بتوجية ضربات جوية وهو أمر يتنافى مع ما سبق وأعلنه مجلس الأمن ردا على الحجج الروسية في العام الماضي من أنه خول حلف الأطلنطي صلاحية اتخاذ القرار والثلاث دول تنتمي لحلف الأطلنطي. فهل لأن التحذير لم يصدر من حلف الأطلنطي ذاته كان رد فعل الأمين العام هو هذا البيان؟! لا شك أنه أمر يثير الدهشة والعجب ولكن متى كانت أزمة البوسنة خاليه من مثل هذه المفارقات ؟ !

الكروات والحل الأمريكي

شكلت أزمة الرهائن وماساة الملاذات الأمنة نقطة تحول في موقف القوى الغربية الفاعلة خاصة فرنسا وأمريكا وتعددت وسائل الضغط على صرب البوسنة لدفعهم إلى قبول خطة السلام داخليا وخارجيا واتخذ هذا الضغط صدورا متعددة. فمن

جانبها قطعت جمهورية صربيا علاقاتها بصرب البوسنة كما سبق ذكره وقرر الناتو توسيع نطاق غاراته في حالة مهاجمة الصرب للمدن الآمنة كما قرر مجلس النواب الأمريكي بأغلبية كبيرة رفع الحظر عن البوسنة من جانب واحد. وبالرغم من أن كلينتون أكد أنه سيعترض على القرار وسيحشد كل امكانياته لالغاء أى فاعلية لهذا القرار فإن موقف الكونجرس الأمريكي شكل عنصر ضغط نفسى على الصرب خاصة وأن صمود كلينتون أمام الكونجرس لن يكون أبديا. واخيرا جاءت عاصفة الكروات لتكون اللبنة الأخيرة فى مسلسل الضغط على الصرب فى اتجاه الموافقة على خطة السلام وبداية التمهيد العلنى والفعلى للتدخل الأمريكي.

اجتاح الكروات منطقة "كرايينا" وتم الاستيلاء على عاصمتها "كنين" وسقط أكثر من ٨٠٪ من أراضى كرايينا فى أيدى الكروات.فى نفس الوقت نجحت القوات البوسنية فى اختراق الحصار على "بيهاتش". ونتيجة لهذه الهزائم تصدعت العلاقة بين رادوفان كارادزيتش وقائده العسكرى ميلاديتش وسعى كل منهم إلى عزل الأخر وتحميله مسؤلية ما حدث، بينما اتهمت المعارضة الصربية الرئيس "ميلوسيفتش" بالخيانة والتخلى عن الشعب الصربى خارج حدود صربيا.

وبينما المجتمع الدولى يطالب بانهاء الهجوم الكرواتى و"اكاشى" مندوب الأمين العام للأمم المتحدة يعلن أن العاصفة الكرواتية ادت إلى حدوث كارثة إنسانية وتشريد الالاف من صرب كرايينا !! أعلن كلينتون أن العملية الكرواتية سوف تساعد فى حل الصراع.

تعددت التفسيرات للعملية الكرواتية فرأى فيها البعض بداية صفقة صربية كرواتية تحصل بموجبها كرواتيا على

كرايينا مقابل تقسيم البوسنة والهرسك بين الاثنين وان كان سفير كرواتيا بالقاهرة نفى وجود أى نوايا سيئة وراء العملية الأخيرة ولكن من الصعب ان يؤخذ هذا الكلام على محمل الصدق.

خاصة فى ظل النزعة العملية التى يتمتع بها الكروات والتى اتضحت منذ بداية الأزمة وتجلت فى تعديل وتبديل التحالفات بما يحقق مصالح كرواتيا. وأيضا فى ظل ما رددته المعارضة الكرواتية منذ عامين وأكثر عن وجود اتفاق صربى كرواتى بهذا المعنى لهذا من السهل قبول وتصديق هذا التفسير. واما البعض الأخر فقد اعتبرها محصلة للتنسيق بين كرواتيا ومسلمي البوسنة لمواجهة الحظر الصربى المشترك ودفع الصرب إلى مائدة التفاوض والقبول بالحل المطروح والمح البعض الأخر إلى معرفة أمريكا مسبقا بتلك العملية. والاكيد أن عاصفة الكروات ما كان لها أن تتم دون الحصول على موافقة أمريكا راعية الاتحاد الكونفدرالى بين مسلمى البوسنة والكروات ودون مساندة وعلم ألمانيا شريطة ألا تتجاوز العملية الحد المسموح به في حصة الأرض التي ستمنح للاتحاد الكونفدرالى وفقا لخطة السلام المقترحة. والأكيد أيضا أن هذه العملية فضحت كل الدعاوى السابقة عن عدم القدرة فى مواجهة الصرب بسبب تفوقهم العسكرى وصعوبة العمليات ألخ... صحيح أن العملية نفذها ما يقرب من ١٠٠ ألف جندى كرواتى ولكن كان من الممكن ان تقوم القوات الدولية بمثل هذه العمليات الرادعه وبعدد أقل من ذلك لو كانت تريد خاصة فى ظل التفوق الجوى والتسليحى الذى يتمتع به حلف لناتو والذى ظهرت فاعليته عندما اراد الغرب اظهار تلك الفاعلية بل وكان من الممكن كما ان تسيطر القوات الدولية منذ بداية الأزمة على طريق برينشكو فى شمال شرق البوسنة وتقطع الطريق على

الامدادات العربية لصرب البوسنة هذا لو كان المجتمع الدولى الغربى والأمم المتحدة قد تحملا المسؤلية بجدية لمواجهة الجرائم التى يرتكبها الصرب.

لهذا نقول أن العملية الكرواتية هى جزء تمهيدى حقيقى لفرض السلام وفقا للتصور الأمريكى والذى بدأ فيما نعتقد منذ رعت أمريكا مفاوضات الاتحاد الكونفدرالى بين مسلمى البوسنة وكرواتيا لوضع حد لهذه الأزمة والحيلولة دون قيام دولة بوسنية موحدة. وقد ألمح تودجمان رئيس كرواتيا – مصدر الخطر القادم على البوسنة – إلى ذلك بقوله ان هدف الاتحاد الكونفدرالى هو مساعدة الغرب بعدم ايجاد دولة مسلمة مستقلة تماما فى أوروبا. ويا لها من تضحية كبيرة قامت بها كرواتيا لترفع عن كاهل أوروبا هاجس قيام دولة مسلمة فى قلب القارة !!.

أن الهدف من هذا الاتحاد بين الكروات والمسلمين فى ظل خطة التقسيم هو تهميش الوجود الفعلى والقانوني لدولة البوسنة وجعلها مجرد "محمية كرواتية" يتمتع فى ظلها مسلمى البوسنة بحضور رمزى فى ظل الرعاية الكرواتية مع تدبير سبل العيش لها من خلال المساعدات الدولية. ولعل الصورة التى تداولتها وسائل الإعلام والتى يقلد فيها الرئيس تودجمان وساما للرئيس عزت بيجوفيتش يبدو فيها وكأنه محافظ تابع لدولة كرواتيا أو رئيس دولة صغرى أمام رئيس دولة كبرى دليل على ذلك وهنا يصبح السؤال عن مصير وموقع مسلمى البوسنة بين صربيا وكرواتيا سؤالا ينتظر إجابة فى المستقبل القريب.

عقب العاصفة الكرواتية تصاعد الاهتمام الأمريكى وبدأت أمريكا مساعيها لدى أطراف النزاع للحصول على تأييد من هذه الأطراف لخطة السلام الأمريكية المعدلة والتى تحفظت

روسيا على جوانبها العسكرية ودعت إلى التركيز على جوانبها السياسية وأن كانت تفاصيل الخطة لم تعرف في حينها.

تحرك هولبروك المبعوث الأمريكي في اتجاه أوروبا للحصول على موافقتها على المبادرة مؤكدا قبل رحيله أن بلاده لا تؤيد تقسيم البوسنة والهرسك أو تجزئتها بأى شكل من الأشكال على الرغم من منح الصرب حوالى نصف اراضيها. ويبدو أن تأكيد أمريكا على عدم تقسيم البوسنة كان رسالة مزدوجة تهدف إلى تشجيع المسلمين على قبول المبادرة الأمريكية والدخول في المفاوضات هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تؤكد لصرب البوسنة عدم موافقة أمريكا على استقلالهم استقلالا تاما أو انضمامهم إلى جمهوريا صربيا وفقا لما طرحته الخطة الأوروبية وهذا هو الخلاف الأساسى بين خطة أمريكا للسلام والخطة الأوروبية، حيث لا خلاف بين الخطتين فى حصه الأراضى لكل طرف وتحجيم دولة البوسنة.

فى نفس الوقت رفض رئيس البوسنة فكرة مقايضة جورازدى بأراض فى سراييفو كما رفض فكرة إدارة سراييفو من قبل الأمم المتحدة وأعلن موافقتة على خطة التقسيم مع الاعتراف المتبادل بين البوسنة وصربيا وكرواتيا واشترط أن يكون رئيس جمهورية صربيا هو ممثل التفاوض وليس صرب البوسنة كذلك أوضح رئيس وزراء البوسنة بأن الخطة تحفظ الحد الأدنى من الحقوق للشعب البوسنى أما كارادزيتش فقد أعلن رفضه لاى حل يعطى الصرب أقل من ٦٤٪ من الأراضى!.

اسندت الأمم المتحدة مسؤلية حماية جورازدى لقوات الناتو لردع الصرب كما وجه الناتو تحذيرا لهم بأنه طائرات الحلف ستتدخل اذا لم يحدث تطور على الصعيد السلمى وعلى الصرب ان يتحملوا النتائج. وكان هذا التحذير هو الأول من

نوعه الذى يحذر صراحة من رفض الحل السلمي ويربط بين الرفض واستمرار الغارات بعد أن كانت تحذيراته السابقة تطالب بوقف عملياتهم العسكرية وفقط. والملفت للنظر أن مصر فقدت حماسها الداعي لرفع حظر السلاح عن البوسنة وأعلن الرئيس مبارك أن مصر ستسحب قواتها المشاركة فى قوات حفظ السلام اذا تم رفع حظر السلام وهكذا تأكد بكل الطرق والوسائل أنه لاسبيل إلا التفاوض والوصول إلى حل فى أسرع وقت ممكن بصرف النظر عن عدالة الحل وعن الجرائم التى تمت فى ظل رعاية المجتمع الدولى للمفاوضات.

مع قيام الصرب بارتكاب مذبحة جديدة فى سراييفو كاختبار للإرادة الدولية هدد الرئيس بيجوفيتش بالإنسحاب من المفاوضات ما لم يتم الرد العسكرى المناسب على المذبحة، وقام الحلف بشن غارات مكثفة لانقاذ التسوية ولأول مرة تحدث موافقة أمريكية أوروبية على تلك الغارات بعدها أعلن صرب البوسنة استعدادهم لتشكيل وفد للتفاوض حول المبادرة الأمريكية! كما أعلنوا موافقتهم على خطة مجموعة الاتصال (الخطة الأوروبية). ولأن الصرب لازالو يرفضون الخطة الأمريكية واصلت قوات الناتو غاراتها ووصل عدد طلعات الحلف إلى ٢٥٠٠ طلعه جوية كما شاركت البحرية الأمريكية فى القصف بصواريخ توما هوك، وأكد قائد قوات الحلف أن التشكك فى حسم المنظمة الدولية والحلف خطأ فادح.

توصل وزراء خارجية البوسنة وكرواتيا وصربيا إلى اتفاق يضمن المبادئ الأساسية لحل الأزمة واتضحت معالم الخطة وتم الاتفاق على استمرار جمهورية البوسنة ضمن حدوذها الحالية ولكن من خلال تقسيمها إلى كيانين بينهما اتحاد. ووصف بيجوفيتش هذا الحل بأنه دواء مر ولكن ليس مميت وأنه

قيل به حتى لا تتوقف غارات الأطلنطى. ومع تعهد الصرب بسحب اسلحتهم من حول سراييفو أعلن كلينتون أن البوسنة أصبحت أقرب إلى السلام من أى وقت مضى. وهكذا اصبحت أمريكا سيدة الموقف وبدأ التفكير فى احلال القوات المتعددة الجنسيات محل القوات الدولية وأعلنت البوسنة رفضها فكرة تقسيم سراييفو وابدت رغبتها فى الانضمام لحلف الناتو لطمأنه الغرب ولتضمن لنفسها الحماية من الصرب والكروات أيضا اذا ما حاولو فيما بعد إستغلال اتحادهم مع البوسنة وتحقيق مكاسب جديدة خاصة وأن كرواتيا هى الطرف الوحيد الذى استفاد من كل ما حدث.

فى اتجاه ممارسة الضغط على الصرب والوصول إلى النسبة المقترحة فى التقسيم استولت القوات البوسنية والكرواتية على مساحة ١٥٠٠ كم٢ وتم تحرير ٣ مدن رئيسية وأصبح نصف أراضى البوسنة تقريبا تحت سيطرة القوات المشتركة وواصل الجيشان البوسنى والكرواتى زحفهما فى اتجاه "بانيولكا" وهنا بدأت الضغوط الأوروبية والأمريكية أيضا لوقف الهجوم وطالبت القوات المشتركة بالتوقف على بعد ١٥ كم من مدينة بانيولكا حتى لا تختل المعادلة وحتى لا تغضب جمهورية صربيا التى لعبت دورا فى اتمام عملية السلام.

فى جنيف توصل الفرقاء المتنازعين إلى اتفاق رأى فيه البعض تحجيم لحلم صربيا الكبرى ووصفه البعض الأخر بأنه بداية متواضعه لحل الأزمة وأن كان قد تحامل على الطرف البوسنى (المسلم). وفى ظل الرغبة الأمريكية للوصول إلى حل سريع للأزمة واصلت أمريكا ضغوطها على الأطراف ونجحت الإدارة الأمريكية فى اقناع البوسنة بالمشاركة وسط تأكيدات بوسنية بمقاطعة المفاوضات أذا أصر صرب البوسنة على

الانفصال ووافق وزراء الخارجية الثلاثة على أن يكون للبوسنة رئيس واحد وحكومة مركزية تتولى تصريف امور البلاد الداخلية والخارجية ووصف رئيس الوزراء البوسنى هذه المبادئ بأنها توفر الحد الأدنى للمؤسسات اللازمة لاستمرار البناء الشرعى للدولة البوسنية، وأكد بيجوفيتش أن هدفه هو الوصول إلى دولة موحدة وأن كان قد حذر فى نفس الوقت من اطماع كرواتيا فى بلاده. توصلت الأطراف إلى اتفاق لوقف اطلاق النار يبدأ سريانه فى ١٠/١٢ وأعرب رئيس وزراء البوسنة عن تفاؤله بإمكان تحقيق سلام بعد ما تفهم الصرب استحالة اقامة دولة صربيا الكبرى إلا أنه سرعان ما تفجر القتال فى اليوم التالى واستولت القوات المشتركة (البوسنية والكرواتية) على بلده سانسكى شمال غرب البوسنة وتوجهوا إلى بانيولكا.

عقب ذلك بدات مفاوضات الفرصة الأخيرة فى مدينة دايتون الأمريكية والتى استمرت ٢١ يوما بدا فيها اطراف التفاوض وكأنهم محتجزون لحين التوصل إلى اتفاق خاصة وان الولايات حددت موعدا نهائيا للمفاوضات يعلن بعدها فشل او نجاح تلك المفاوضات وهددت أمريكا بأنها سترفع يدها من المشكلة وستتراجع وساطتها فى حالة الفشل وبالتالى لم يعد هناك مفر من الوصول إلى اتفاق. وبرغم ان الخارجية الأمريكية أعلنت أنه ليس هناك ضمان بنجاح تلك المباحثات فقد صرح بيجوفيتش أنه متفاءل مؤكدا ان النواحى الدستورية المتعلقة بالأرض ستشكل محور المفاوضات وبالفعل توصلت الأطراف إلى اتفاق شامل تم توقيعه بالأحرف الأولى فى ١١/٢١ وأرجأ التوقيع النهائى ليتم فى باريس فى اشارة أمريكية لدور فرنسا خاصة فى الفترات الأخيرة وحتى يبقى لأوروبا دورا ولو شكليا خلال حفل التوقيع النهائى يخفف من مرارة فشلها السياسى

طوال الفترة الماضية فى حل الأزمة والذى لعبت أمريكا دورا فيه، قبل ان تلقى بثقلها السياسى، بعد أن نضجت الظروف وتتوصل إلى هذا الحل الذى يمثل ولا شك لطمه للاتحاد الأوروبى تؤكد فشله فى حل أول أزمة سياسية كبرى تواجهه بعد التوحد وايضا للأمم المتحدة التى تحولت إلى مجرد جهاز يصدر بيانات لا تتلائم مع الأزمة ولا مع المسؤلية التى وعددت بها العالم بعد حرب الخليج.

وتم التوقيع النهائى فى ١٢/١٤ بباريس وحضر حفل التوقيع خمسون من رؤساء الدول والحكومات ووزراء الخارجية. على رأسهم كلينتون الذى تعهد بالتزام بلاده بعملية السلام وجون ميجور رئيس وزراء بريطانيا الذى رحب بالاتفاق والمستشار الألمانى هيلموت كول الذى اعرب عن أمله ان يستقبل مواطنو البوسنة قوات السلام كاصدقاء ورحبت الصين واليابان بالاتفاق الذى انهى اسوأ صراع شهدته أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية وكان ضمن المشاركين وزيرالخارجية المصرى وممثلى مجموعة الاتصال الإسلامية خاصة وأنها ستتحمل جزء من تكلفة إعمار البوسنة وهى تكلفة قدرها رئيس البنك الدولى بمبلغ ٤,٩ مليار دولار لاصلاح اقتصادها فقط. وقدرها البعض الأخر بمبلغ ٦ مليار بينما ارتفع بها البعض إلى ١٠ مليار لإعادة اعمار البوسنة ككل وهذا هو الاقرب إلى الحقيقة وبالطبع سيبدأ صراع الشركات بعد أن يتوقف صراع المدافع والدبابات.

اتفاق السلام الملغم

توصلت الأطراف فى ظل الرعاية الأمريكية إلى اتفاق يحافظ على الدولة شكلا مع تقسيمها من الناحية العملية إلى

قسمين حيث أصبح للصرب عمليا دولة معترف بها على مساحة ٤٩٪ من أراضى البوسنة ولهـا برلمـان محلى مقـابل دولـة كونفدرالية تضم الكروات والمسلمين علـى مـا تبقى مـن مساحة البوسنة (٥١٪) ولهما برلمان مشترك اضافة إلى برلمـان موحـد يضم الجميع. كما اتفقا - كما قيل - على تشكيل رئاسة جماعيـة من ٣ أعضاء (صربى وكرواتي ومسلم) وهـذا يذكرنـا بالرئاسـة الجماعية التى وضعها تيتـو وتسببت فـى تفجير يوغسلافيا كمـا سبق واوضحنا وان كان لم يتوفر لنا القـاعدة التى ستحكم عمـل هـذه الرئاسـة الجماعيـة. واتفقـا أيضـا علــى اسـتبعاد السياسـيين المتهمين بجرائم الحرب وبقاء سراييفو موحده ووقـف العمليات الحربية وتحديد المنـاطق المنزوعـة السـلاح علـى أن يتـم فصـل القوات العسكرية فى مناطق النزاع - المشتركة - بمسافة ٤ كـم وعـودة اللاجئيـن وسـحب القـوات وإعـادة انتشـارها والحـد مـن التسلح خاصة الأسلحة الثقيلة ما لم يكن منعها وتلك نقطة خـلاف بين أمريكا وأوروبا حيث تفضل أمريكا تسليح البوسـنة تدريجيا حتـى يمكنهـا الدفـاع عـن نفسـها بعـد انسـحاب القـوات الدوليـة المسؤله عن تنفيذ الاتفاق بينما تتحفظ أوروبا على ذلك. كما اتفقـا على تبادل الأسرى ونقل الصلاحيات من قوة الحماية الدولية إلى قوة الاشراف على تطبيق الاتفاق والبالغ عددها ٦٠ ألف تشـارك أمريكا فيها بـ ٢٠ ألف جندى - ومن المعروف أن مصر ضمـن الدول المشـاركة فـى هـذه القـوة - اضافـة إلـى شـرط هـام وهـو ضرورة التخلـص مـن المجـاهدين الذيـن تسـربوا داخـل البوسـنة ويصـل عددهم وفقا لتقديرات الاجهزة المخابرانيـة ٤٠٠٠ مقـاتل ذو كفاءة قتالية عالية حيث بدأو تدريبهم على يد عناصر أمريكية أثناء الأزمة الافغانية ثم تمرسوا على فنون القتال هناك والتحقـوا

بالبوسنة وبعضهم تعلم على يد نفس العناصر داخل البوسنة ذاتها.

ان هذا الحل الأمريكي الذى اعتمد سياسة الترهيب والترغيب والمرواغة مع أطراف الأزمة، حتى مع أوروبا ذاتها، مستخدما فى ذلك توجيه ضربات حقيقية وموجعة لصرب البوسنة بعكس ضربات الناتو السابقة هو حل تلفيقى ومؤقت ككل الحلول السابقة فى البلقان وبالتالى فإن قابليته للاستمرار مشكوك فيها ناهيك عن أنه مكافأة للمعتدى حتى وأن كان قد تم تحجيمه.

وبالرغم من أن هذا الاتفاق الأخير يمكن اعتباره شهادة وفاة رسمية ليوغسلافيا السابقة وبالتالى فهو نهاية - أو تعطيل - لمشروع دولة الصرب الكبرى فى البلقان المتنكر خلف شعار بقاء يوغسلافيا موحدة إلا أنه لا يمكن اعتباره - أى الاتفاق الحل - شهادة ميلاد حقيقية لدولة البوسنة الموحدة بعد تقسيمها ولا بداية سلام حقيقى. فاتفاق السلام هذا لا علاقة له بأى شكل من الأشكال بالسلام العادل والحقيقى والنهائى بل هو اتفاق سلام ملغم ملئ بالثغرات التى يمكن استغلالها من قبل أى طرف ومرهون بتوازنات القوى الحالية والمستقبلية إلى أن تحين فرصة التعديل لتلك التوازنات أو تختل معادلة الاتزان التى يرتكز عليها الاتفاق.

فالاتفاق يرتكز على دعامتين الأولى : هى ضعف صرب البوسنة الحالى بسبب الحصار الذى شاركت فيه صربيا ذاتها والضربات التى تلقوها من الناتو كما وأن رئيس صربيا هو الذى وقع الاتفاق ولازال الكثير من صرب البوسنة يرفضه وبالتالى سيعملون بكل جهدهم إلى افشاله متى تحين الفرصة. أما الدعامة الثانية فهى الاتحاد الكونفدرالى بين الكروات والمسلمين وهو تحالف قابل للأنفجار فى أى وقت وخاصة فى ظل النزعة

البرجماتية (العملية) للكروات والتى تمارسها بغرض الحصول على مزايا مرحلية وايضا فى ظل صراع الاثنين على بعض المدن وخاصة موستار والتى من الممكن أن تكون هى سبب انهيار هذا التحالف وبالتالىانهيار السلام وبداية تحالفات جديدة للكروات مع الصرب ناهيك عن الصراع المحتمل تكراره بين الصرب والمسلمين فى مدينة سريبينتشا وزيبا اللتان اصبحتا داخل نطاق جمهورية صرب البوسنة. ولتفادى هذا الصراع - خاصة فى حال عودة اللاجئين - لابد وان يمارس المجتمع الدولى ذاته ممثلا فى الأمم المتحدة والدول الراعية للاتفاق عملية التطهير العرقى بحيث تصبح كل منطقة خالصة تماما لمن يسيطرون عليها، وهذا يعنى تقسيم البوسنة فعليا إلى ثلاث دول. والمهم في كل ذلك - من وجهة نظر الغرب - هو أن تبقى هناك منطقة تضم هؤلاء المسلمون بدلا من تشريدهم فى أوروبا وحتى لا يصبحو فلسطينيو القارة.

من ناحية أخرى سيؤدى وجود أكثر من برلمان إلى حدوث تضارب وتصارع وخلل تشريعى يعيق الحكومة المركزية والبرلمان المركزى من ممارسة مهامه. فلكى يصدر من البرلمان الموحد أى قانون أو قرار لابد وأن يحصل على موافقه ٣٣٪ من نواب كل إقليم داخل البرلمان الموحد وفى حالة تعذر ذلك يتم احالة الموضع محل الخلاف إلى البرلمان الإقليمى والذى يجب أن يحظى فيه الموضوع محل الخلاف على موافقة ثلثى الأعضاء لكى يصبح نافذا. والسؤال هو ماذا لو أنه لم يحظى على تلك الموافقة ؟! إن هذا الوضوع بكل تأكيد سيحد من سلطة البرلمان الموحد وسينتج عن ذلك صراع وتضارب تشريعى وستكون هناك دولة داخل الدولة وسيؤدى هذا الوضع إلى التقسيم.

أما المشكلة الثانية التى ستواجه هذا الاتفاق فهى قضية اللاجئين الذين يجب أن يعودوا إلى ديارهم والتى اصبحت تحت سيطرة الأخر وتلك مسألة شديدة التعقيد والحساسية فى ظل ما جرى من مذابح وقتل طوال الأعوام الماضية وسيصبح الحل كما قلنا هو إعادة الفرز العرقى وإعادة التسكين بالتبادل أى تقسيم البوسنة فعليا وانهيار هذ الحل ولكن إذا كان هذا الحل الأمريكى قابل للأنفجار وسيؤدى إلى تقسيم البوسنة فى النهاية فلماذا عارضت أمريكا منذ البداية خطة أوين - فانس التقسيمية أيضا ؟! من الصعب طبعا أن تكون الاجابة المقنعة هى تخبط الإدارة الأمريكية وعجزها.. ألخ فالأمر أعمق من ذلك وله علاقة برغبة أمريكا فى إذلال أوروبا وتأكيد عجزها واحتياجها الدائم لها إذا أرادات ان تحافظ على أمنها واستقرارها وأيضا تأكيدا لضرورة وجودها فى البلقان منبع القلق والحروب العالمية فى أوروبا وبالتالى تصبح مفاتيح استقرار أوروبا أمنيا وسياسيا بعد توحدها فى يد أمريكا تديرها وقتما تشاء بعد أن أصبحت مفاتيح نموها واستقرارها الاقتصادى أيضا فى يد أمريكا بعد أن وضعتها على منابع النفط فى الخليج.

والمشكلة الثالثة التى تهدد اتفاق دايتون - باريس هى تعدد الانتهاكات لاتفاق دايتون - باريس منذ اللحظة الأولى حيث أطلق الكروات سراح "سافيتشاراجيتش" مجرم الحرب الذى ادين رسيما اضافة إلى إتباعهم سياسة الأرض المحروقة فى المناطق التى يرحلون عنها. كما أن روسيا منحت مجرم الحرب الصربى ميلاديتش حق اللجوء السياسى بالرغم من مطالبة مجلس الأمن جميع الأطراف بالتعاون مع المحكمة الدولية لتسليم هؤلاء المجرمين وفقا لنصوص الاتفاق.

أما اعقد المشاكل فهى تلك التى تتعلق بالمجاهدين والذين يطلق عليهم تارة المجاهدين الافغان وتارة الافغان العرب والذى تسربوا إلى البوسنة خلال الأعوام الماضية. هؤلاء هم الشغل الشاغل للإدارة الأمريكية ومصدر القلق الأعظم داخل البوسنة لان عملية واحدة من أحد هؤلاء المجاهدين - أو من مجاهد صربى بجلباب إسلامى !! - كفيله بهدم هذا الاتفاق ودفع القوات الأمريكية - والدولية - إلى الانسحاب حتى لا تتكرر مآساتهم فى لبنان. ويا لها من مفارقة ساخرة فقد أدى التقاعس الغربى طوال السنوات الماضية عن التدخل الحاسم لانهاء الأزمة مبكرا خشية وجود دولة إسلامية كما يتوهمون إلى تدفق هذا العدد الكبير من المجاهدين المتمرسين على فنون القتال إلى البوسنة بل ونجاح هؤلاء فى استقطاب بعض البوسنيون إلى صفوفهم بعد نجاحهم فى العديد من عمليات القتال وبات من الصعب الان خروج هؤلاء من البوسنة كما نص الاتفاق خاصة بعد أن اصبح لهم تواجد حقيقى داخل البوسنة وبعضهم تزوج بوسنيات واستقر به المقام.

وإذا كان بعض المجاهدون يخضع مباشرة لسيطرة الجيش البوسنى ويتحرك بالتنسيق معه خاصة فى منطقة توزلا فإن البعض الأخر لا يخضع لاحد بل واصطدموا بالقوات البريطانية وموظفوا الاغاثة الدولية خاصة فى منطقة زنيكا والمنطقتان ضمن القطاع الذى ستشرف عليه القوات الأمريكية - الشيطان الأكبر فى نظر هؤلاء المجاهدين بعد أن تدربوا على أيدى رجالها خارج البوسنة وداخلها وتسربوا إليها منذ أواخر ١٩٩٢ - فهل لعب القدر لعبته وجاء نصيب أمريكا فى هذه المنطقة ؟! أم أنها عملية مقصوده بوصفها الأكثر دراية ومعرفة بهم ؟! وحتى يظلوا تحت رعايتها واشرافها بحيث تتولى

تصفيتهم أو إرسالهم إلى مكان أخر اذا كان فى ذلك ضرورة أمريكية !. عموما ستقع الحكومة البوسنية فى حرج شديد مع هؤلاء المجاهدين بعد أن أصبح لهم جميل فى عنقها من الصعب إنكاره خاصة وأنهم هم الذين هبوا لنصرتها بينما تخلى عنهم – ولازال – العالم المتحضر وسيكون ترحليهم نكران لهذا الجميل. ولكن بقاءهم ايضا سيكون مصدر حرج للحكومة البوسنية التى تعهدت بترحيلهم ولكن إلى أين ؟ من سيقبل هذه الالغام المتحركة خاصة وأنهم مطلوبين فى بلدانهم ؟ وهل لو منحتهم الحكومة البوسنية الجنسية وهو احتمال وارد يرحب به بعض افراد الحكومة سيلتزموا بتعليمات الحكومة البوسنية أم سيحاربون الشيطان الأكبر والحكومة البوسنية ذاتها ويقضون على ما تبقى من حطام البوسنة كما حدث فى أفغانستان حين شاركو فى القتال إلى جانب بعض الفصائل ضد البعض الآخر. هذا ما ستجيب عليه الأيام والأعوام المقبلة فى ظل هذا السلام الظالم والملغم.

الفصل الحادى عشر

البوسنة وتوظيف الإسلام



التاريخ الاوربى كما لاحظنا من الخلفية التاريخية ملىء بالحروب الدموية العرقية والدينية التى تم توظيف الدين فيها. فكثيرا ما اختلط الدينى بالسياسى فى العصور الوسطى والحديثة أيضا وخاصة فى فترات نشوء الدولة القومية فالدولة القومية المعاصرة كما يقول وليد نويهض (١٠٦) تأسست اصلا على قاعدة الفرز الدينى / العرقى وهى لم تنهض سياسيا إلا بعد ان تم الغاء التنوع والتعدد حيث ترى (الدولة القومية) ان التنوع والتعدد (الدينى/العرقى) يهدد وحدة الدولة وتماسكها التاريخى.

إذن الدولة القومية الأوروبية الحديثة هى دولة قائمة على الفرز العرقى والدينى، وعلى هذا الاساس هى دولة عنصرية. ومن المهم هنا ان نفرق بين المد القومى الساعى إلى التحرر والانعتاق من الاستعمار أو سيطرة قومية أخرى، والمد القومى الفاشى العنصرى الساعى إلى الهيمنة والسيطرة على الآخر كما هو الحال فى يوغسلافيا السابقة الآن. حيث تحول بقايا الشيوعيين اليوغسلاف إلى قوميين فاشست وخاصة الصربيين الذين اصبحت لديهم الرغبة - والقدرة - فى استعادة وأحياء مشروعهم القومى التوسعى وبسط سيطرتهم وهيمنتهم على باقى القوميات خاصة القومية البوسنية بوصفهم الطرف الاضعف الذى يمكن للصرب قضمه واحتواءه والسيطرة عليه دون حدوث ردة فعل قوية ضدهم داخل أوروبا، خاصة اذا تم اللعب بورقة الاسلام والاصولية الإسلامية الزاحفة على أوروبا من خلال المهاجرين وتخويف أوروبا من عواقب ذلك، وتذكيرهم بأن الصرب كانوا دائما هم المدافعين عنهم امام العثمانيين مع استحضار ما فى الذاكرة من حقائق تخص وقتها وزمنها، اضافة إلى الاوهام والخرافات والاساطير الراسخة فى الذاكرة الجمعية والتى ساهمت ولا زالت تساهم فى تأجيج

المشاعر ضد الاسلام والمسلمين فى الماضى والحاضر. وعندما نقول اوهام وخرافات واساطير فنحن لا نجانب الصواب، فكثير مما تحويه الذاكرة الجمعية يحمل كثيرا من هذه الخرافات والاساطير والاكاذيب. ولدينا نحن ذلك ايضا فعلى سبيل المثال إذا تم ذكر كلمة "السلف" لابد وان تتبعها كلمة "الصالح" وكأن كل "السلف" هو بالضرورة "صالح"، كذلك اذا ذكرت كلمة الغرب لابد وان يتبادر إلى ذهننا كل الشرور، وكأن الغرب هو كتلة واحدة وشر مطلق وهذا أمر مخالف للحقيقة والعقل والمنطق. ومع ذلك لدينا من يروج لهذا والحال عند الصرب والغرب هكذا فإذا ذكرت كلمة إسلام فهذا يعنى الاتراك ويعنى تاريخ طويل من المآسى والمرارة، وهو أمر فيه قدر كبير من المبالغة "فالمناظر والرؤى التى تدعو للاسى والتى ما زالت كامنة فى الخيال الشعبى لشعوب البلقان المسيحية والتى تصور العثمانيين غزاة سفاحين متعطشين للدماء ما هى الا نتيجة للدعاية التى سادت يوم كانت الروح الصليبية هى الغالبة وكان الهبسبورج وباباوات روما هم عصب هذه الدعاية" (١٠٧) ومع ذلك فالغوغائيين والديماجوجيين لا يكفون عن ترديد هذه الخرافات وتلك الاكاذيب لدينا ولديهم ويتجاهلون كل ما هو ايجابي لدينا ولديهم فتضيع الحقيقة وتتسع الفجوة وتزداد العداوة وتشتعل الصراعات.

ولان الخيال الشعبى لا زال ملىء بهذه الصور فقد تم توظيف ذلك لخلق حالة من الكراهية ضد البوسنيين بوصفهم مسلمين بل وبوصفهم بقايا الاتراك او ممثلين لهم !. وفى ظل أزمة الواقع الصربى / اليوغسلافى ازدادت الرغبة العدوانية الصربية تجاه الآخر والتأكيد على انهم كانو مضطهدين ايام الشيوعية – الجميع هناك يقولون ذلك – وشرع الصرب فى

تحقيق مشروعهم القومي التوسعي القديم باعتباره هو الحل لأزمتهم الخاصة. وكانت الخطوة الاولى لذلك هي التحذير من الخطر الإسلامي، وهنا التقت الرغبة الصربية الساعية إلى" تدمير الحضور الإسلامي في البلقان وقطع الصلات الاخيرة بين الاسلام كدين واوروبا كقارة على حد قول الباحث الصربي "الكسندر بيوفيتشي" (١٠٨).

مع رغبة أوروبا في عدم قيام دولة اسلامية بالمعنى الذي يتصوره. وجد الصرب أذانا صاغية لما يرددونه، ساعدهم على ذلك بالطبع الصورة الكريهة والوجه القبيح للحركات الاصولية الارهابية المتأسلمة والتي صنعها الغرب اصلا لخدمة اغراضه الخاصة في ظل الحرب الباردة لمواجهة الاتحاد السوفيتي والتي لا زال يستثمرها البعض حتى بعد زواله خاصة أمريكا لتحقيق هدفين، الأول خلق عدو جديد يبرر استمرار تواجدها العسكري في مناطق العالم الملتهبة وبالتالي سيادة المنطق الامريكي واستمرار الاحتياج لها. والثاني خلق حالة من الفوضى وعدم الاستقرار في بعض المناطق لمنعها من الانطلاق واستكمال مشروعها الوحدوى كأوروبا الغربية أو انجاز مشروعاتها التنموية كما هو الحال في منطقة آسيا و آسيا الوسطى وبعض البلدان العربية خاصة وان هذه الفوضى وهذا التفتيت يتيح للقوة الامريكية الفرصة في فرض منطقها واستراتيجيتها وهيمنتها وقيادتها لهذا العالم وفقا لتصوراتها وأهدافها ومصالحها.

ومع تصاعد موجة الكراهية ضد الاقليات الإسلامية المهاجرة في أوروبا والتى تسربت اليها الافكار الاصولية، تولد لدى أوروبا الميل إلى تصديق الدعاوى الصربية عن الاصولية الدينية في البوسنة وهو أمر تعرف أوروبا اكثر من غيرها انه

غير صحيح وان البوسنة لن تكون دولة اسلامية اصولية بالمعنى الذى يروجون له. خاصة وأن وزير الشئون الدينية البوسني " نفى عزم حكومته إقامة نظام إسلامي وقال أن هدف حكومة البوسنة هو اقامة دولة تسود فيها الحرية الدينية وتحترم طقوس العبادة للجميع " (١٠٩) وهو أيضا ما أكد عليه رئيس سلوفينيا بقوله " أن اوروبا تتأثر بالدعاية الصربية التي تروجها جمهورية الصرب والتي تصور المسلمين على أنهم اصوليون بالرغم من أنه لم يكن لهم قط اى روابط مع حركات اسلامية راديكالية فى الخارج وان الدول الغربية نسيت ان مسلمي البوسنة شعب اوروبى" (١١٠) اضافة إلى ان الباحث غزافيية يورال (١١١) لاحظ اثناء قيامه بدراسة عن مدى تشبث الناس بالدين ان مسلمى البوسنة والهرسك يأتون فى آخر القائمة وان الحس الدينى الضعيف تمت تنميته بسبب رد الفعل تجاه عدائية سكان البلاد غير المسلمين والتأثير القوى للمسلمين الاصوليين طبعا بعد تسربهم إلى البوسنة.

وبالرغم من ان الغرب يعرف ذلك فإنه اقتنع بخطر قيام دولة اسلامية وهمية أو محتملة فى البوسنة يستخدمها الاصوليون ضدهم خاصة بعد زيارة بيجوفيتش للسعودية المعروف عنها دعمها للحركات الاصولية في بداية الأزمة اليوغسلافية وتغافلوا في نفس الوقت خطر الاصولية العرقية الصربية الفاشية الموجودة فعلا والتى شرعت فى تأسيسها دولتها الصربية الاصولية بالقوة من خلال فرض هيمنتها وسيطرتها على باقى القوميات الاخرى خاصة القومية البوسنية بعد ان تدخل العالم الغربى ومنع الصرب من فرض هيمنتهم بالقوة على السلوفان والكروات.

ونتيجة لكل ذلك اصبح من السهل ارجاع هذا الصراع القومى إلى اسس دينية خاصة وان كلمة صربى تعنى القومية الصربية وكلمة كرواتى تعنى القومية الكرواتية، اما القومية البوسنية فيتم التعبير عنها بكلمة مسلم. ومن هنا كان من السهل ان يسقط الجميع فى شرك الدعاوى الصربية الديماجوجية بما فيهم الديماجوجوين الإسلاميون فعلى سبيل المثال هاجت واستنكرت بعض الاقلام الإسلاموية دعوة بابا روما للنساء المغتصبات بعدم الاجهاض والاحتفاظ بالاجنة باعتبار ان ذلك مؤامرة صليبية يهدف من البابا من ورائها زيادة عدد المسيحين!! علما بأن رفض الاجهاض هو موقف دينى يقول به المسلمون والمسيحيون على السواء ورجال الدين الإسلامى ناشدو نساء البوسنة بعدم الاجهاض ايضا.

هكذا وكما قلنا سقط الجميع فى الشرك وبدلا من ان تكون القضية هى قضية تحرر قومى وحق تقرير مصير اصبحت عند الاسلاميين قضية صراع بين الاسلام والمسيحية وهى مسألة اضرت البوسنة اكثر مما افادتها. وأفادت الصرب والغرب أكثر مما أضرتهم.

فى المقابل وعند البعض الآخر خاصة من الذين لا زالوا يرون فى الدولة اليوغسلافية دولة اشتراكية أو من الممكن ان تكون كذلك مرة أخرى. رأوا ان هذه التجزئة مسألة لا مبرر لها وان تفكيك الكيان اليوغسلافى يضر به اكثر مما يفيده وحملوا الغرب الامبريالى مسئولية ذلك وفى هذا الكلام قدر كبير من الصحة لكنه تجاهل عدة حقائق : -

اولا : ان الكيان اليوغسلافى هو كيان اصطناعى تم تجميعه وتركيبه لخدمة أغراض ومصالح محددة عقب الحرب

العالمية الاولى والثانية فى مصانع الرأسمالية وبالتالى يمكن تفكيكه وتجزئته اذا اقتضت الضرورة ذلك (اعادة الاستخدام).

ثانيا : ان المطروح الآن لبقاء هذا الكيان متحدا هو وقوع باقى القوميات الأخرى تحت هيمنة القومية الصربية الفاشية التوسعية الراغبة فى اقامة صربيا الكبرى وفرض هيمنتها على باقى القوميات ومحو شخصيتهم وثقافتهم ودينهم اذا اقتضى الأمر وان الطرف المعرض لحدوث ذلك فيه اكثر من غيره هو الطرف المسلم تحديدا.

ثالثا : عندما يكون الهدف الصربى هو الثأر من هؤلاء البوسنيين وجعلهم يدفعون ثمن دخول اجداد اجدادهم منذ ٥٠٠ سنة دين المستعمر كما يقولون يصبح الاصرار على بقاء البوسنة ضمن هذا الكيان المتحد هو بمثابة حكم بالاعدام عليهم وتبنى كامل لوجهة النظر الصربية الفاشية ومساعدتها على تنفيذ مخططاتها، ما لم يتم اولا ردع هذه الرغبة الفاشية التوسعية وتحجيمها وهو الأمر الذى تقاعست أوروبا عن القيام به .

رابعا : ان تحميل الطرف البوسني المسئولية بحجة انه سعى إلى الاستقلال هى مغالطة كما رأينا فقد كانت البوسنة حريصة على بقاء يوغسلافيا المتحدة ولكن وفقا لاسس جديدة. لقد بدأوا يوغسلاف وعندما استحال ذلك أصبحوا بوسنيون هدفهم الحفاظ على البوسنة موحدة وعندما باتوا يقتلون ويطردون من بيوتهم بوصفهم مسلمين أصبحوا كذلك. لذلك فإن القاء اللوم على البوسنة بحجة انها تسعى إلى قيام دولة اسلامية، هو مغالطة غير صحيحة ولعل تشكيل مجلس الرئاسة البوسنوى المكون من صرب وكروات ومسلمين يدحض ذلك الادعاء حيث يمثل المسلمون الأكثر عددا فرد واحد في هذا المجلس اضافة الى أن نتيجة الاستفتاء على الاستقلال تجاوزت نسبة السكان المسلمين

والكروات معا (٦٨٪) هذا في حالة النسب الشائعة ٤٦٪ مسلمون و ١٨٪ كروات. وإلى جانب كل ذلك فإن برنامج وايديولوجية حزب العمل اليمقراطى البوسنى (الإسلامى) تقول انه "حزب يتبنى الفكر الليبرالى الاوروبى ويدعو إلى التحام البوسنة وباقى الجمهوريات اليوغسلافية بأوروبا الموحدة ويشير بشكل عابر إلى امكان قيام مسلمى البوسنة بلعب دور الجسر الحضارى بين الشرق الإسلامى واوروبا كما تدعو وثائق الحزب وافكاره إلى التعايش بين شعوب يوغسلافيا القديمة ويقترح اعادة بنائها من جمهوريات مستقلة ذات سيادة تامة وخلق مؤسسات كونفدرالية" (١١٢) اى اقامة اتحاد كونفدرإلى بين الجمهوريات اليوغسلافية الست وهو الأمر الذى رفضه كل من الصرب والكروات كما اوضحنا فى السابق.

هذه الرغبة القومية فى التحقق والاستقلال لدى البوسنيين والحفاظ على هوية الشعب البوسنى كان من السهل ان يتم صبغها بصبغة دينية. خاصة وكما قلنا اصبحت كلمة مسلم تعبر عن شخصية قومية بوسنية. وعندما تسود الرغبة الثأرية الغبية والحمقاء والساعية إلى جعل هؤلاء يدفعون ثمن دخول اجدادهم دين الاسلام والتعامل معهم بوصفهم خونة للشعب للشعب الصربى السلافى - وهى مغالطة كبرى كما اوضحنا - وأيضا عندما يقوم الصرب بشكل منظم ومخطط بتدمير المساجد فى البوسنة وازالتها تماما ومحو آثارها كشفت صحيفة "يوربا" التى تصدر فى صربيا "النقاب عن بدء حملة صربية لتدمير مساجد البوسنة التاريخية وازالة حطامها تماما لمحو أى آثار للوجود الإسلامى من هناك" (١١٣) يصبح من السهل جدا اعتبار هذه الحرب حربا دينية.

وعندما يكون هذا هو السلوك الصربى تجاه البوسنة فهل من المستغرب اذن ان يتمسك هذا الشعب بهويته الإسلامية طالما انه يزبح على اساسها وطالما ان العالم تخلى عنهم بهذا الشكل - الذى يصعب تفسيره - وتركهم طوال هذه الفترة يعانون ما يعانون ثم عندما يتدخل يمنع عنهم السلاح، ويقسم بلادهم بعد ذلك على اسس دينية لأنه لا يقبل أن يبقى الصرب والكروات تحت راية الدولة البوسنية بينما يقبل سيطرة ٢٠٠ الف صربي (١٠٪) على ٢ مليون الباني في كوسوفو (٩٠٪) حيث يمارس الصرب عمليات طمس وتغيير للهوية الثقافية والحضارية لهذا الاقليم ومنعهم من تعلم لغتهم الالبانية بل وتم تحويل اسم جامعة كوسوفو الى جامعة " سافا " وهو رجل دين صربي عاش في القرون الوسطى. ناهيك عن أن الحقوق التي تم اقرارها للصرب والكروات في البوسنة لم يتم اقرار مثلها لباقي الاقليات المسلمة في باقي الجمهوريات. هل من المستغرب بعد كل هذا ان يتم تفسير ما يحدث لهم بعيدا عن كونهم مسلمين - بالطبع لا - وان كنا نرى انه كان من الصعب على أوروبا وبعض اطرافها الفاعلة والتى سعت إلى تفكيك هذا الكيان اليوغسلافى الذى سبق اصطناعه وتفجيره من الداخل ان تترك كيان دولة البوسنة الجديد دون تفتيت ايضا حتى لا يحقق دولته الديمقراطية المتعددة الديانات والثقافات والمتعايشة بشكل طبيعى وديمقراطى مع سيادة روح التسامح بين الجميع لانها ستكون بمثابة الشاهد على فشل نموذجهم الاحادى الساعى إلى نفى الآخر والمخالف لهم ثقافيا واجتماعيا ودليل على عنصريتهم وفاشيتهم لذلك كان لابد من منع هذا الوليد من النمو والاكتمال وكان لابد وان يدفع شعب البوسنة للمرة الثانية او الثالثة ثمن اعادة ترتيب وصياغة النظام العالمى وفقا للرغبات والمصالح الغربية وكان لابد وان تكون

هذه الحرب البشعة والتى تكررت فى هذا المكان اكثر من مرة وبنفس القدر من الوحشية والبشاعة.

ودعونا نقرأ بعضا مما جاء فى أحد التقارير - لاحد اللجان التى شكلتها أوروبا وامريكا ايضا - عن حرب البلقان الثانية عام ١٩١٣ والتى لم يكن الاتراك طرفا فيها على لسان احد الاعضاء الفرنسيين المسيو غودار يقول التقرير "ان الحرب لا تشنها الجيوش وحدها بل الامم ايضا.. وهذا يجعلها دموية إلى هذا الحد ومكلفة فى الارواح بحيث تنتهى دائما بإبادة السكان وتدمير مناطق بأكملها ويضيف التقرير ان الهدف من النزاع المسلح هو ابادة مجموعات من السكان الغرباء (الآخر) فالقرى لا تحتل فحسب بل تدمر ايضا وحيث لا يفروا يرغمون على الفرار وتحرق بيوتهم. مسكين هو الشاب الذى فى سن الجندية أو المرأة (العدوة) التى يعثر عليها حية فى قرية محتلة : الاغتصاب حاضرا ابدا واحيانا الموت ويتجه الضحايا المشردون إلى الطرقات أو الجبال بالالوف فى بحث مرعب عن مكان يستطيعون على الاقل ان يسندوا اليه رؤوسهم وقد رأينا امواجا كبرى من اللاجئين المثيرين للشفقة. اما اسرى الحرب فإنهم اذا لم يقتلوا على الفور كانوا يقتادون إلى معسكرات فى العراء حيث يموتون جوعا" (١١٤).

هذا ما حدث فى عام ١٩١٣ اما فى عام ١٩٩٣ فقد نشرت الاندبندنت مقتطفات من تقرير سرى مشابة رفعته لجنة تحقيق أوروبية إلى المجلس الوزارى للمجموعة الأوروبية جاء فيه "ان القوات الصربية ساهمت فى تنفيذ اعمال اغتصاب منظم لما لا يقل عن ٢٠ الف من الفتيات والنساء وان الاغتصاب يستخدم لتحقيق اهداف سياسة التطهير العرقى وقال وزير خارجية ايرلندا المشارك فى بعثة التحقيق ان عمليات الاغتصاب

ترتكب بطرق سادية للغاية كي تلحق بالضحايا اكبر قدر من المهانة" (١١٥) كذلك اورد مازوسكي رئيس وزراء بولندا في تقريره كلاما عن "عمليات احراق قرى اسلامية وتدميرها بكاملها وابادة اهلها واستخدام المقابر الجماعية لدفنهم" (١١٦) اضافة الى معسكرات الاعتقال الجماعية

هذا الكلام تم نشره في يناير ١٩٩٣ والاكيد ان ما تم بعد ذلك اشد وافظع فهل هناك فرق بين ما جاء في تقرير عام ١٩١٣ وتقرير عام ١٩٩٣ عن هذه المنطقة ؟ هناك فرق بسيط وهو ان العالم كان يشاهد ذلك يوميا على شاشات التليفزيون اثناء تناول وجبات الطعام !! كما وأن هناك اضافة جديدة وهي مشاركة بعض أفراد القوات الدولية في عمليات الاغتصاب التي تمت للنساء البوسنيات!! وهكذا اعاد التاريخ نفسه فإذا كانت المرة الاولى مأساة فإن الثانية مهزلة، مهزلة شارك فيها العالم كله بصمته وتآمره في كل مرة. وفي كل مرة كان الشعب البوسني هو الذي يدفع ثمن إعادة صياغة العالم من جديد. يدفع الثمن في وجود الحرب الساخنة والباردة وفي اختفاءهما.

كذلك وايا كانت الاسباب التي تكمن وراء ذلك سواء كانت سياسية أم اقتصادية أم تاريخية أم دينية أم جغرافية فإنها لا تبرر حدوث هذه الجريمة على الاطلاق تلك الجريمة التي تفجرت بسبب رغبة الصرب التوسعية في احياء مشروعها القديم واصرار العالم الغربي على منع القومية البوسنية من التحرر والانعتاق من سيطرة القومية الصربية أو الكرواتية خوفا من وهم اسمه الدولة الإسلامية.

لقد أكدت احداث البوسنة زيف وكذب كل الادعاءات حول الشرعية الدولية وعدم مشروعية العدوان وحقوق الانسان والنظام العالمي الجديد إلى آخر هذه المصطلحات التي تم

تدشينها وترويجها عقب حرب الخليج الثانية لكنها سقطت تماما فى مستنقع البلقان والبوسنة اما نحن فلا نملك الا ان نصرخ ونقول انظروا العالم الغربى فقد مصداقيته ويكيل بمكيالين وننسى دائما انه لديه مكيال واحد وهو مصالحه سواء حرر الكويت أو قسم البوسنة، ارتدى العمامة الإسلامية - كما حدث فى افغانستان - أو خلعها وأخاف بها العالم كما حدث في البوسنة. والغريب أن المتآسلمين يساعدون العالم الغربي في الحالتين، سواء عندما يهاجمون الغرب فى جانبه المضئ المتمثل فى انجازاته العقلية والمعرفية وأساليب الحكم الديموقراطى أو عندما يستجدون بقواته ومؤسساته الفاشية العسكرية لانقاذهم. ولا مانع بعد ذلك من الحديث عن الغرب الاستعمارى الكافر اذا لم يتوافق تماما مع ما يريدون ولا مانع أيضا من الاستفادة بديموقراطية الغرب هناك للهجوم عليه والتشنيع به وتهديده بأن رايه افسلام سترتفع على أوروبا ولك ان تتخيل رد فعلنا نحن العرب المسلمون لو أن بعض مواطنى أوروبا أعلنوا وصرحوا بأن رايه المسيحية سترفرف على البلدان العربية. هل سنتركهم يعيشون بيننا !! أنها حالة من الفصام خص بها الله عبادة المتأسلمين.

الهوامش

١- د. محمد فؤاد شكرى ود. محمد انيس - أوروبا فى العصور الحديثة ص ١٢٣ - ١٢٤

٢- سعيد عبد الفتاح عاشور - أوروبا فى العصور الوسطى. مكتبة الانجلو المصرية ص ١٢٣،١٢٤،١٢٦،١٢٧.

٣- محمد فؤاد كوبريلى - قيام الدولة العثمانية ص ١٢ - الهيئة العامة للكتاب.

٤- الحياة ١٩٩٣/٥/٦

٥- د. سعيد عبد الفتاح عاشور - مصدر سابق ص ٤١٨.

٦- محمد فؤاد كوبريلى - مصدر سابق ص ١٠.

٧- محمد السماك التقاطع الدينى والقومى فى حروب البوسنة - الحياة ١٩٩٣/٣/١٥.

٨- د. سعيد عبد الفتاح عاشور - مصدر سابق ص ٤٣٣.

٩- د. سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٦٥٢ مصدر سابق.

١٠- بول كولز - العثمانيون في اوربا - ترجمة عبد الرحمن الشيخ - الهيئة العامة للكتاب ص ٣٣.

١١- د. سعيد عبد الفتاح عاشور - مصدر سابق ص ٦٥٣.

١٢- بول كولز - مصدر سابق ص ٣١.

١٣- من كتاب اشباع الصرب تأليف روبرت كابلان نقلا عن الاهرام ١٩٩٣/٥/٥.

١٤- بول كولز - مصدر سابق ص ١٦٩.

١٥- التصدع العالمي.ل.س ستافريانوس ترجمة موسى الذغبي - عبد الكريم محفوظ - دار طلاس دمشق ١٩٨٨ ص ١٢٤

١٦- د. سعيد عبد الفتاح عاشور - مصدر سابق ص ٦٠١.

١٧- بول كولز - مصدر سابق ص ٢٩.

١٨- كارل بروكلمان - تاريخ مسيرة الشعوب الإسلامية ص ٤٨٧.

١٩- بول كولز - مصدر سابق ص ٧٣، ٩٩.

٢٠- ل.س ستافريانوس مصدر سابق ص ١٢١

٢١- دولة الشرق الاستبدادية بيري اندرسون. ترجمة بديع نظمي مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت ١٩٨٣ ص ٢٠
٢٢- بول كولز - مصدر سابق ص ١٠٠.
٢٣- بول كولز - مصدر سابق ص ١٦٢
٢٤- كارل بروكلمان - مصدر سابق ص ٤٨٩
٢٥-بول كولز - مصدر سابق ص ٣٧
٢٦-كارل بروكلمان - مصدر سابق ص ٤٨٨
٢٧-بول كولز - مصدر سابق ص ١١٨
٢٨-بول كولز - مصدر سابق ص ٣٦، ٣٧
٢٩-روبير مونتران - الحياة ١٩٩٣/١/١٢
٣٠-بول كولز - مصدر سابق ص ٧٢، ٧٣
٣١- بول كولز - مصدر سابق ص ١١٩
٣٢-بول كولز - مصدر سابق ص ١١٨
٣٣- عمر زكى عبد الوهاب - التسامح الدينى مقابل همجية العصور الوسطى الحياة ١٩٩٣/٨/٣١ .
٣٤- بيري اندرسون. مرجع سابق ص ١٥، ١٦.
٣٥- عمر زكى عبد الوهاب - مصدر سابق
٣٦- نقلا عن ستافريانوس.. مصدر سابق ص ١٣٦،١٣٧
٣٧- سمير امين - استغلال العرقية فى يوغسلافيا السياسة الدولية يوليو١٩٩٣.
٣٨- الحياة ٩٣/٣/١٥
٣٩- احمد ابراهيم احمد - الحياة ٩٣/٤/١٨
٤٠- سمير امين - مصدر سابق
٤١- سمير امين - مصدر سابق
٤٢- العالم اليوم ١٩٩٣/٥/٢ نقلا عن د. لطفى عبد العظيم
٤٣- سمير امين مصدر سابق
٤٤- الحياة ٩٣/١/٦
٤٥- الحياة ٩٣/١/٢٨
٤٦- الاهرام ٩٣/٤/٧
٤٧- الاهالى ٩٣/٤/٧
٤٨- النور ٩٣/٣/١٧
٤٩-الشرق الاوسط ٩٣/٦/١٨

٥٠- الاهرام المسائى ٩٣/١/٦

٥١-الشرق الاوسط ٩٣/١/٦

٥٢- الاهرام ٩٣/١/٩

٥٣- الاخبار ٩٤/١/١٦

٥٤- الاهرام ٩٣/٤/٢٤

٥٥- الاهرام ٩٣/٣/٥

٥٦- الاخبار ٩٣/٤/٢٨

٥٧- العالم اليوم ٩٣/٥/٢

٥٨- الشرق الاوسط ٩٣/١/١١

٥٩- آخر ساعة ٩٣/١/٦

٦٠- الحياة ٩٣/٧/١٤

٦١-الاهرام المسائي ٩٣/٤/١٤

٦٢- الاهرام ٩٣/٧/١٥

٦٣- الاهرام ٩٣/٣/٤

٦٤- الجمهورية ٩٣/١/٨

٦٥- العالم اليوم ٩٣/١/١٥

٦٦- الاهرام ٩٣/٨/٢٤

٦٧- الانباء ٩٣/٩/٢ نقلا عن الهيرالدتريبيون.

٦٨- الحياة ٩٣/١/٣١

٦٩- الاهرام ٩٣/٦/٦ نقلا عن أحمد بهجت

٧٠- الاخبار ٩٣/٤/٢١

٧١- الاهرام ٩٣/٥/١٩

٧٢- الاهرام ٩٣/٥/٢٣

٧٣- الاهرام ٩٣/٥/٢٤

٧٤- الوفد ٩٣/٥/٢٥

٧٥-الشرق الاوسط ٩٣/٥/٣٠

٧٦- الاهرام ٩٣/٦/١٠

٧٧- الجمهورية ٩٣/٦/١٩

٧٨- حياة ٩٣/٧/١٥

٧٩- الجمهورية ٩٣/٧/٢

٨٠- الحياة ٩٣/٧/٥

٨١- الاخبار ٩٣/٧/١٣

٨٢- الاهرام ٩٣/٧/٢٢

٨٣- المساء ٩٣/٨/٢

٨٤- الجمهورية ٩٣/٨/٧

٨٥- الحياة ٩٣/٨/٨

٨٦- الشرق الاوسط ٩٣/٨/١٦

٨٧- الاهرام ٩٣/٨/٢٠

٨٨- الشرق الاوسط ٩٣/٩/٦

٨٩- الحياة ٩٣/٩/١٠

٩٠- العالم اليوم ٩٣/٩/٩

٩١- الاهرام ٩٣/٩/١٠

٩٢- الاهرام ٩٣/٩/٧

٩٣- الوفد ٩٣/٩/١٨

٩٤- الحقيقة ٩٣/٩/١٨

٩٥- الجمهورية ٩٣/٩/٢

٩٦- الحياة ٩٣/١٠/١٣

٩٧- الحياة ٩٣/١٠/١٢

٩٨- الحياة ٩٣/١٠/٢٧

٩٩- الحياة ٩٣/١٠/٢٨

١٠٠- الاخبار ٩٣/١١/١٨

١٠١- الاخبار ٩٣/١١/٢٣

١٠٢- الاهرام ٩٣/١١/٢٥

١٠٣- الاهرام ٩٣/١١/٢٦

١٠٤- الحياة ٩٣/١١/٢٢

١٠٥- الحياة ٩٣/١١/٢٥
١٠٦- وليد نويهض الحياة ٩٣/٤/٢٢
١٠٧- بول كولز - مصدر سابق ص١١٩
١٠٨- الحياة ٩٣/١/١٢
١٠٩- الحياة ٩٣/١/٢٠
١١٠- الوفد ٩٣/١/١٨
١١١- الحياة ٩٣/١/١٢
١١٢- محمد خليفة - أزمة يوغسلافياومأساة البوسنة مجلة مستقبل العالم الإسلامى العدد ١١/١٠
١١٣- الشعب ٩٣/٤/٢
١١٤- سمير عطا الله - البلقان جذور فى الدماء الشرق الاوسط ٩٣/٧/١
١١٥- الحياة ٩٣/١/٧
١١٦- مجلة الوطن العربى ٩٣/١/٨





تحت دائرة الضوء

البوسنة
والميراث الدامى

بهدف معرفة الأسباب الحقيقة للصراع الدامى فى يوغسلافيا السابقة (**والبوسنة تحديدا**) ، نناول هذا الكتاب تاريخ البلقان لمعرفة خصوصيته ومتى كان يستقر ومتى يتفجر ؟ وكيف دخل الاتراك إليه ؟ ومتى عرفت هذه المنطقة الإسلام ؟ ولماذا اعتنقه البعض ؟ ولماذا كان الصراع فى البوسنة هو الأكثر دموية وشراسة وهمجية ؟ ولماذا الصمت والتواطؤ الغربى ؟ هل هو الاختلاف الدينى أو العرقى كما هو شائع ، أم أن هناك أسبابا أخرى كثيرة ومتعددة بعضها تاريخى كامن فى الذاكرة وبعضها اقتصادى وسياسى ترتبط كلها بصراع الأدوار وطموح الدول المجاورة ، وغير المجاورة ، كلما سنحت الفرصة نتيجة للمتغيرات الدولية ؟ لماذا تتفكك يوغسلافيا فى زمن التوحد الأوروبى ؟! أين دعاوى الشرعية الدولية .... إلى آخر هذه الفضيحة الأخلاقية والسياسية ؟! ما هو موقف الأطراف الدولية من هذا الصراع فعليا ؟ وهل السلام الذى تحقق هناك سيعيد إلى هذه المنطقة أمانها المفقود ، أم أنه مجرد هدنة سيعقبها الانفجار مرة أخرى عندما تحين الفرصة ؟!

مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات
٤ ش ٩ ب المعادى ت : ٣٧٥٢٠٣٣

